

المجلس الرفيع
غفر الله له ولوالديه

في مجلس أبي الطيب الملتبني

تأليف
إبراهيم السامرائي

دار الحديث
بيروت

٨١١،٥
أ ف

٨١١،٥
اب.في

المجلس الرفيع
غفر الله له ولوالديه

المليحة رفعت همدان

غفر الله له ولوالديه

2009-01-18

كلية آداب - بنين

في مجلس

أبي الطيب المتنبي



تأليف

إبراهيم السامرائي

جامعة الكويت

إدارة المكتبات - قسم المراجعين والمطالع

رقم التسجيل: ٧٤٦٠٨

التاريخ: ٩٤١٨٤٠

دار الجيد

بيروت

٦٠
٥٠
٥

المليحة رفعت همدان

غفر الله له ولوالديه

في مجلس
أبي الطيب المتنبّي

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

٨٠٦٣٧

مقدمة

قلت: «في مجلس أبي الطيّب» بل في «صحبتة»، وأنا في هذه الصحبة غيري في سنين خلت، فقد صحبتة وأنا يافع، وصحبه معي جمهرة من الشداة وطلاب الدرس ومحبي الأدب القديم. وهكذا كان لأبي الطيب صحابة عدد الرمل والحصى والتراب.

إن هذا لا يعني أن الناس على تراخي العصور قد اتخذوا أبا الطيب أحد خلانهم، بل الذي آثروه بمودتهم فقدّموه على غيره ممن عاصره ومن سبقه أو جاء بعده، فقد كان للمتنبّي خصومه من الشعراء وغيرهم، وتاريخ الأدب العباسي قد سجل جمهرة الشعراء الذين تصدوا للمتنبّي فهجوه. ولا تعجب ان ترى صاحب بن عباد معادياً له متسقطاً مساوئه، مصتفاً في هذه المسألة «سفراً»^(١) وتمضي العصور فلا يخف هذا الصدى العجيب الذي ما زال دويّه يصطك الأسباع.

وليس عجباً أن يتفق القوم في أبي الطيب، يقرأه الشيخ ويحفظه ويردّد عيون أشعاره معجباً بها، مستشهداً بما ورد فيها من قول ماثور أدرج في باب الفكر والرأي والحكمة. ويقرأه أدباء العصر في أيامنا الذين ينزعون الى الجديد من الشعر مما يُسمّى «الشعر الحرّ» أو نحو من هذا، فيعجبون بأدب المتنبّي ويطربون، وقد يتكثون على ذرة من شعره يدسونه في صنعتهم الجديدة لا يخفى على أهل العلم من النقاد المهرة.

(١) مساوئ شعر المتنبّي، مطبوع.

أقول: صحبت أبا الطيب سنين طويلة، ولكني كغيري من الكثيرين الذين غرّوا بكلمة النوايغ فاستظهروا هذا الشائع الكثير مما عُدَّ حكمة أو مثلاً.

ثم عدت الى صاحبي القديم انظر في هذه الصحبة واتبين أصولها التي قامت عليها، ولا أرضى أن أصحبه كما صحبته في سنين خلت، وكما صحبه ويصحبه جمهرة من الدارسين غيري. ورأيت أن اعرض لما يتحدث هو عن نفسه، وأبتعد عما قيل فيه، وما زال يقال: ملأ الدنيا وشغل الناس.

وقد أردت لصحبتني الجديدة ألا تكون خُلَّةً قبل ان تسبر أغوار هذه الخلّة، وأردت ان أجرد من نفسي مستفيداً يبتغي ان يعرف غير الذي يردده الناس ويشغلون به.

وها أنا أعود الى شعره باحثاً أتفقد فيه حاجةً تقيم صلةً جديدةً ليست صداقة ولا عداوة، ولكنها صلة الإنسان بالإنسان يعاشره فتتعقد بينهما وشيجة رحم مادتها الإنسان. وسأجعل هذه الصلة بيننا قائمة اسأل منها أبا الطيب مستحضراً ما قاله في شعره فآلتمس الجواب فيه. وستكون هذه الصلة في مجالس يحضرها ابو الندى يتلو شعر المتنبي، وأنا اسمع فأسأل أبا الطيب فيتعقد الحوار. وقد يكون الأمر في غير حوار فيبيدي أحداً ما يراه ويعرضه الى صاحبه بين يدي أبي الطيب، فيما أن يوافق ابو الطيب على ما رأينا وإما ان يكون منه موقف خاص.

المجلس الأول

قلت: هل لك أبا الندى أن تسمعنا شيئاً من شعر أبي الطيب في صباه؟
قال أبو الندى: لا عليك، كأني بك تريد أن تقف على «أنا» وهي
حاضرة في شعره كأنه لا يفارقها، وهي لا تفارقه.

قال أبو الندى: ألكما أن تسمعنا:

أبلى الهوى أسفاً يومَ النوى بَدَنِي وُفِرَّقَ الهجرُ بينَ الجفنِ والوسنِ
روحُ تردُّدٍ في مثلِ الخلالِ إذا أطارت الريحُ عنه الثوبُ لم يَبِينِ
كفى بجسمي نحولاً أنِّي رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم تَرَنِي

قال أبو الندى: لا أدري لم طلبت إليّ أن استحضر هذه الأبيات الثلاثة،
وما أراك إلا ضللت الطريق، وهل كان لك أن ترى «أنا» فيها؟ وأين ذلك في
هذه الأبيات، التي يقولها شابٌ في مستقبل العمر غزلاً متشبهاً؟

قلت: ما كنت أظنك تجهل ما يومىء لمحاً إلى الحقيقة، وكنت أظنك
تدرك بعضاً من لحن القول. وما أراك إلا قد قر في سمعك ما يقوله أهل
البلاغة وغيرهم من الحاقدين على أبي الطيب الذين عابوا عليه قوله الذي ذهب
فيه إلى الاحالة:

كفى بجسمي نحولاً أنِّي رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم تَرَنِي

قال أبو الطيب:

قلتُ حسناً فوصفت هؤلاء وجعلتهم أهل حقٍّ وضغينةٍ. ما أبعدهم
عني، وهل كانوا إلا حساداً؟

قلت: عجبت من أمرك أبا الندى، وأنت من أهل العلم، كيف غاب
عنك أمر النسيب والتشبيب في شعر أبي الطيب. لقد شُغلت، يا أبا الطيب

بـ«أنا» هذه التي أفنيتَ عمرك تسعى في تحقيقها فأتعبتَ نفسك وزلتَ بك قدمُك، فأنتُ للمرأة أن تكون متمناك، وهل هي في شعرك إلا بعض «عرائس الشعر»؟

قال ابو الطيب: لقد ظلمتني فذهبتَ في مذهبك هذا أما سمعتَ قولي:
لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنتُ ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقلة المترقِر
.....
وأشنبَ معسول الثنيات واضح سترتُ فمي عنه فقَبِلَ مفرقي

قلت:

ما أنتَ وذاك، يا أبا الطيب، لقد أجدتَ الصنعة حتى قال بعض من خدعتهم: إنك عاشق متيّم.

لا تصرفنا عما نحن فيه من هذه «الأنا» التي ملكت عليك نفسك.

قال ابو الندى:

وأين تجدها في قصيدة توجّه فيها أبو الطيب الى سيف الدولة؟

قلت:

ما احسب انك ابا الندى من بعض قوم شغلهم صاحبك أبو الطيب فأعاروه ما ليس زيه حتى قالوا: ملأ الدنيا وشغل الناس.

قلت:

لقد اتكأتَ أبا الطيب، على هذه الديباجة ورأيتَ أن تتغنى مع نفسك، فاستملتَ بغنائك جمهرة القراء ولا أبرىء أهل الرأي إذ زعموا أنك ابن الملوّح أو جيل، وقليل ما هم.

لقد اتكأتَ عليها لتصل الى الأمير سيف الدولة ومعه ابن ابي الهيجاء.

وأي خير أن يكون فيها نسيب ووجد وأسى؟

لقد شَغَلْتُكَ «أنا» وفَرَّتْ منك، وسَعَيْتَ الى اللحاق بها، فما أدركتَ في

سعيك بعضً هيكلها، وقد آذنتك فشقيت بها.

قال أبو الندى:

لم تجبني الى ما كنت قد سألتك عنه؟

قال أبو الطيب:

ألم أقل لك: إنك ظلمتني، وهل تُرجى النصفة والعدل من ظلوم يجحدُ
الناس ويبخسهم حقهم؟

قلت:

لا عليك. إن «أنا» هذه غاية لم تنقص منه الوسيلة، وتحقيق الغاية
يستعان عليه بالوسائل، ومن هذه الوسائل صنعتك وحذقك وفنك.

ودع عنك مديحك لسيف الدولة، وأريد أن أنبهك الى ضالتك، وهي
«أنا» فأجيب أبا الندى الى ما سألني.

ألم تقل مع قولك في مدحه:

بلغت بسيف الدولة النور رتبةً أنرتُ بها ما بين غربٍ ومشرق
إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ أراه غباري ثم قال له الحق

ألم تر أنك الممدوح، وأن قولك فيه فحواشٍ وشحت بها ما أردت أن
تصل إليه من أمرك، فاتجهت الى «أنا» التي شقيت بها؟

قال أبو الندى:

أراك ضربت صفحاً عن دالية أبي الطيب التي لم أتلُ منها إلا المطلع:

أهلاً بدارٍ سباكٍ أغيدُها أبعدُ ما بانَ عنك خُرْدُها

قال أبو الطيب:

ألم تدرك السببَ يا أبا الندى؟

لقد اجتهدَ صاحبك فسعى الى ما شقينا به من أمرٍ مُحترعاته، فلم يظفر
منه بشيء، فأين «أنا» هذه التي رمانى بها.

كأنى أقول: رَمَتني بدائها وانسلت.

قلت:

على رِسْلِكَ، أبا الطيب، ولا تتعجّل الأمر، ولا تذهب في شُبُهَاتِكَ،
وهُنَّ كُثْر.

إن دَالِيَتَكَ تلك من شعر الصُّبَا، وأخو الصبا حَدَثَ يتغنى بوجده
ويتحرّق ويأسف على ما لا يُدرِكه، وما لم يجد السبيل إليه، وهو إن بدا له
فدونه خَرَطُ القَتَاد.

وقولك ذاك من أوّل شعرك، ووجدك فيه وأسأك على مَنْ لم ترّه ولم تعرف
من أمره، هو وجدك وأسأك مع نفسك، تصل بهما الى الممدوح قائلاً: أتيْتُكَ
بعد أن ضقتُ ذرعاً ولقيْتُ من شجوني ما لم يلقه الناس.

وممدوحك هذا، وأنت غلام حَدَثَ، كبير المنزلَة رَحْبُ الجَنَاب، فهل
لغلام حَدَثَ ان يتجاوز حدّه فيتحدّث بصريح الكلام عن نفسه، وهو بحضرة
محمد بن عبيدالله العلوي؟

قال أبو الطيب:

ما أبرعَكَ! لقد أتيَتْ فأحسنْتَ الإثية، ولزمتَ الطريق فسلكتَ الجَدَد،
وأمنتَ العثَار وكأني أقول: أخذ القوسَ باريها.

قال ابو الندى:

عجبتُ من أن يُثني عليك أبو الطيب، ولم تضرب فيما ذهبت إليه بسهم،
فأين «أنا» أبي الطيب في تلك الدالية التي حفيت مخلصه بالنسيب تتوسّل به الى
الممدوح؟

قلت:

كأني قد اخطأتُ فيكَ الظنّ أبا الندى، وما كنت أحسب أنك من ساقه
أهل الأدب تجوز عندك كلّ زَعِيفَة.

لقد فاتك، أبا الندى، أن صاحبنا أبا الطيب ليّن العود فأتى له أن يشمخ
مع ممدوحه العلوي؟

ولو توسعت في تلاوتك لعرفت أن جلّ ما قاله في صباه قرزمة يلوكلها
ويُجري بها لسانه، وما أظنك تجهل ما قال أحدهم في عمر بن أبي ربيعة: ما
زال هذا القرشيّ يهذي حتى قال الشعر.

أنسيّت ما تلوته أمس من شعره في صباه في مقطوعته التي مطلعها:
وشادنٍ روح من يهواه في يده سيف الصدود على أعلى مُقلِّده
أنسيّت سائر المقطوعة وكلها بضاعة مزجاة لا ترضاها من ناظم قلّت
أدواته فتعترّ في سيره؟

وقد ضنّ صنّاع ديوان أبي الطيب بذكر الممدوح الذي قال فيه صاحبنا أبو
الطيب:

لم أعرف الخير إلّا مذ عرفت فتى لم يؤلّد الجود إلّا عند مولده
فهل لك أن تجد في هذه القرزمة تحقيق «أنا»، في غير مكانها؟
قال أبو الطيب:

لست سعيداً بمجلسي هذا، وكثير أن تأذن لامرئٍ يُجالسك فلا تظفر منه
بالحُسن، ولو جاز لي أن أهجوك لكان لي ذلك، ولكنك ضيفي، والضيف
صاحب الدار.

قلت:

لا عليك، لقد هجوت غيري من أكرموك فقدّموك، ولكنك جحود
كنود. ولا يسلم منك من دعوته «ضيفاً» ألم تقل على وجه من التشبيه:
ضيفٌ ألم برأسي غير محتشم سيف أحسن فعلاً منه باللمم
قال أبو الندى:

ما كان لي أن أصرفك عن دأبك، وعما أنت فيه ممتحن بـ«أنا» هذه التي
لزمّت أبا الطيب لزوم ظله.

قلت:

هل لك أن تُسمع أبا الطيب خمسة أبياته اللامية مما قيل إنه قالها في
صباه؟:

فأنشد أبو الندى:

مُحِبِّي قِيَامِي مَا لَذَلُكُمْ النَّصْلُ بَرِيئاً مِنَ الْجَرْحَى سَلِيماً مِنَ الْقَتْلِ
أَرَى مِنْ فِرْنَدِي قِطْعَةً مِنْ فِرْنَدِهِ وَجُودُهُ ضَرْبُ الْهَامِ فِي جُودَةِ الصَّقْلِ
وَحُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِي الْحُضْرَةِ الَّتِي أَرْتَكُ أَحْمَرَارَ الْمَوْتِ فِي مَذْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي
وَذَرْنِي وَإِيَّاهُ وَطَرْفِي وَذَابِلِي نَكُنْ وَاحِداً يَلْقَى الْوَرَى وَانْظُرَنْ فَعِلِي

لَا فُضُّ فُوكَ، أبا الندى، لقد جئنا بما نحتاج إليه، وسنرى ما يقوله أبو الطيب.

لقد سمعنا النصل والقتل والجرحى والقتلى، وهذه أدوات أبي الطيب يستحضرها وتطيب بها نفسه وهي هي وأكثر منها في قصائده الأخرى. ولكني وددت أن أقف على قوله:

فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

ولن أقف في هذا على «أنا» وحدها، بل أتجاوزها إلى «الأننا» الخاصة التي لا نظير لها بين بني الخلق.

قال أبو الطيب:

تريد أن تقول: إنك ادَّعيت «النبوة»، وكأنك قد صدَّقتَ فِي حُسَادِي
وأعدائي وهم كُثُر.

قلت:

ما كان لي والله أن أُصدِّقَ فِيكَ الحُسَادَ الشَّائِنِينَ، ولم أسمع من أحدهم
قوله فيك. وقد تألَّبوا عليك فما استطاعوا وبقيتَ أنت «مالي الدنيا وشاغل
الناس».

ولكني أتوجَّه لصاحبنا أبي الندى الذي شَغَلَتْهُ محاورتنا عن التلاوة،
وأطلب إليه أن يتلو الدالية «الخفيفة» الغانية بدَّلَهَا وحسنها...

فأنشد أبو الندى:

كم قتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدٍ لبياضِ الطَّلَى ووَزِدَ الحدودِ
وعيونِ أَلْهَا ولا كعيونٍ فتكَّتْ بالمتَّيِّمِ المعمودِ

قلت:

ما أغنانا عن هذا النسيب نظفر به لدى كل حَدَثٍ يتغزل في صباه غزلاً
تغلب فيه الأحلام على دنيا الناس، وكنت أطمع منك أبا الندى أن تتلو قول
أبي الطيب:

عش عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طعنِ القَنَا وخَفَقِ البنودِ
فروؤسُ الرماحِ أذهبُ للغَيِّ ظِ وأشقى لغلِّ صَدْرِ الحقودِ

قال أبو الطيب:

وأى شيء في هذا، وهو حماسة وفخر، لهج بها كل لسان، وسارت سير
الأمثال...

قلت:

هو ذاك، وأشهد أن لك الكثير مما بات على كل لسان، أصبت فيه،
وأدركت القصد بلفظ رشيق ما كان لغيرك شيء منه.

ولكني كنت أود أن يكون فيما تلاه أبو الندى قولك:

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي وبحسي فَاخْرُتُ لا بجودودي
ألا ترى معي، أبا الطيب، أنك تجاوزت الحدَّ وجعلت الشرف لك
وحدك، وأن قومك عيال عليك، وأن آباءك وأجدادك ليغرفون من بحرك
ويقيمون مجدهم من مجدك. وكأنَّ أبا الندى قد وقف على «أنا» في هذه
القصيدة، وأحسَّ أنك قد تجاوزت فيها الحدود، فاحتشم في حضرتك فطواها
وأبى أن يتلوها.

لقد شقيت، أبا الطيب، بهذه «الأنا» فأقضت مضجعك، وأوردتكَ شرَّ
الموارد، ألم تقل في رثاء جدتك شيئاً من هذا، وهو قولك:
ولو لم تكني بنتَ أكرمٍ والدٍ لكانَ أباكِ الضَّخَمَ كونُكَ لي أُمَّا

تعالى الله، ما أجحدك، وما أقساك.

إنك في موطن الرثاء، وكان عليك ان تكتفي ببكائك وأن تلتمس لحنيك
وبكائك لغة صالحة تذوب فيها «أنا» بمقام المراثي، فهل فعلت هذا؟

قال أبو الندى:

على رسلك شيخي وسيدي، لقد أكثرت في شاعرنا المفلق، شاعر كل
العصور فأوسعته لوماً وجئت على ما لم يكن له فيه خير، وأغضيت عن محاسن
جمة تضمّنتها أعلaque النفيسة.

ولم لم تذكر فخره في الدالية «الخفيفة» في قوله:

وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّاءَ دَ وَعَوُذُ الْجَانِي وَعَوُثُ الطَّرِيدِ

قلت:

لك ان تقول ذلك، وكأني بك، أبا الندى، قد عدت الى ما كان من
علمك وفطنتك.

لقد استحضرت فخره بقومه، وأنهم كانوا فخر كل العرب «يعوذ بهم
الجانبي» و«يُغاث الطريد».

قال أبو الطيب:

أستكثر علي أن أخلص الى نفسي فأفصح عن نوازع الخير فيها فأقول بعد
أن قلت في قومي ما أنشدته قبل قليل:
أَنَا تَرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسِمَامُ الْعَدَى وَغِيْظُ الْحَسَوْدِ

قلت:

لا استكثر ذلك، ولكني أقول: غلبت عليك نفسك فأنت أسير لها، لقد
قيدتك بل استعبدتك فانطلقت تتحدث عنها حديث من دعا غيره الى ذمه
لتكثيره، فكثر العدو وازدحم الحساد.

غير أنك طويت عن عمد أن تتلو معي قولك في آخر بيت من داليتك

هذه:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

لا والله، لم تكن القافية قد قادتك الى «ثمود» فيبرز أمامك نبي الله صالح، ولكنها نفس سَدَّتْ عليك الأقطار فأبعدتكَ عن دنيا الناس فكنت على ما خيلت نفسك أحد المصطفين الأخيار من الأصفياء الأنبياء.

ثم ألم تقل في هذه القصيدة أيضاً:
ما مُقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أتكون «القافية» قد جاءت بـ «اليهود» وإذا كان هذا أكان عليك أن تكون في البيت كالمسيح بين اليهود؟
تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

قال أبو الطيب:
كانك رضىت لنفسك أن تكون من الشناة الحاقدين لمشايعتك لهم فيما تقولوا وأرجفوا. لم أقل إني نبي ولم أشر الى ادعاء بذلك، ولم أكن متنبئاً. معاذ الله أن أكون من الكاذبين.

قال أبو الندى:
وكأني استشعر الصدق والاخلاص في قولة أبي محسد، ما أغناه عن ذلك.
لقد ترك جمهرة المتشاعرين وراءه وراح مجلياً لا يشق له غبار.

قلت:
ليس لك، أبا الندى، أن تكون من قوم مَرَدُوا على النفاق والكذب، ألم تتل عليّ في مجلس كهذا ما رَدَّه جمع من أهل الأدب خاضوا في أبي الطيب فوقفوا على قوله:

أيّ محلّ ارتقي أيّ عظيم اتقي
وكلّ ما قد خلّق الله وما لم يخلّق
محتقر في همّي كشجرة في مفرقي

ألم يشهد الجمع على أن هذا قول صاحبهم مُتَّهَم في عقله، بله دينه، ودع عنك الكفر الصريح، وانظر في رجل لا يتقي أي عظيم فكيف عاش، وكيف

يحيا، وكيف سيكون في دنياه وآخرته؟

قال أبو الطيب:

ليس لي أن أنكر هذا الذي سمعت، ولكن ذاك من عبث الصبا، ألم
تسمعو قول القائل:

ان الشباب مطيئة الجهل

وكيف لي أن أتجاوز حدي فأدعي ما لا طاقة لي به، ألم تسمع ما قلته في
رثاء أم سيف الدولة:

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

قلت:

لكأني بصاحبي، أبي الندى، قد سئم مجلسنا وأتعبته التلاوة.

قال أبو الندى:

ما كان لي أن أمل مجلسك وفيه شاعر العربية، ثم إني غرس يديك
وربيب فضلك، ولم أغترف إلا من بحرك، ولم أفد إلا من رأيك، فماذا تريد
مني أن أتלוه؟

قلت:

هل لك ان تقرأ اللامية من الكامل في مدح بدر بن عمار وقد خرج الى
الأسد، والخبر معروف مشهور؟

قال ابو الندى:

دونك ما طلبت:

في الخد إن عَزَمَ الخليط رحيلا مطر تزيد به الحدود محولا

الى ان يقول:

أمعفّر الليث الهزبر بسوطه كين أدخرت الصارم المصقولا

.....
.....

كنت أود ان تصل الى قوله في بدر بن عمار:
لو كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مَقْسُماً فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ إِلَهُ رَسولاً
لو كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ مَا أُنْزِلَ إِلَهُ فُرْقَانٌ وَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ
ولكن غلب عليك الأمر وسئمت التلاوة.

ولا أدري ماذا يقول صاحب مجلسنا شاعرنا الكبير، أليس في قوله من
الاغراق والمبالغة التي ليس لها أن تكون من دنيا الواقع؟ هو أنه شيء من الكفر
والتجاوز على خلق الله للناس.

وماذا يقول في بيت له من قصيدة قالها في صباه يمدح ابا المنتصر شجاع
ابن محمد بن أوس... الأزدي التي مطلعها:
أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْزُقُ وَجَوَى يَفِيضُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقَّرُ
والبيت هو قوله:

لم يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَحَدًا وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ
قال أبو الطيب:
وهل في هذا كله شيء يُقَوِّي به الخصوم أراجيفهم، ويدعون في أني قد
تطاولت على الله؟

قال أبو الندى:
وهل لشيخي أن أسمعته قول أبي محسّد في قصيدة مدح بها أبا عبد الله
محمد بن عبد الله بن محمد الخطيب الخصيبي صاحب القضاء في انطاكية، التي
مطلعها:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لَدَى الزَّمَنِ يَخْلُو مِنْ أَهْمِّ أَغْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ
والبيت هو قوله:

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جَيْلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَى الْحَرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ
قلت:

كانك ترمي الى أن تنتصر لأبي محسّد. خاب سعيك، فهل كان في أبي

محسّد حاجة الى نصرتك، وعنده من اللآلئ الغوالي ما يقمنّ شاهداً وأيّ شاهد.

غير أني وددت أن أشير الى هذه الذاتِ العليّة التي شَقِيَتْ بـ «أنا»، وقلّ من لم يشق بـ «أنا»، ولكن الناس يختلفون في القدر.

كأننا قد أطلنا مقامنا في مجلسك يا أبا الطيب، فهل لنا أن نخفف عنك وننصرف لنعود اليك غداً بزاد جديد؟

المجلس الثاني

قال أبو الندى:

الى أين أنت غادٍ في مسيرتك؟

قلت: أنسيت ما اتفقنا عليه وواعدنا أبا محسّد الليلة الماضية وإني لألمح الدار عن بُعد، وكأني بها هذه التي أصبحت منا على قرب.

قال أبو الندى:

كأنك أكثرت القول في شعر صاحبنا وخُضت فيه، ألنا أن نضرب صفحاً عما كان بيننا؟

قلت:

كأنك أبا الندى لائم عاتب، وما أرضى لنفسي ان أكون ممن يبتشس منهم ابو محسّد. وان أهل العلم عرفوا عنايتي بأدبه وإكباري لمزلته.

ألم تذكر أني حدثتك عنه وقلت فيما قلت أين ابو تمام والبحري وابن الرومي من أبي الطيب. كان لكل من هؤلاء شعر كثير ولكننا لا نعرف منه إلا القليل نجتزئ به عن كثيرهم. ألا ترى ابن الرومي صاحب المطولات التي تيف في كثير منها على الثلاث مئة أو الأربع مئة، ولكنها غناء أحوى. وليس لك من شعره إلا رثاؤه لبنيه وقوله في البصرة واجتياح الزنج لها، وكلمات أخرى ضاعت في بحر ديوانه الصخّاب. وليس ابو تمام ولا البحري بأسعد حالاً، فأنت لا تستظهر من كل منها إلا أشتاتاً يسيرة، روج لها أهل صناعة الأدب. أما سمعت ان أبا تمام في «حماسه» أشعر منه في شعره؟ واني ليحزنني أن يبتشس مني أبو الطيب الشاعر الكبير الذي نسي به الناس جمهرة الشعراء الفحول.

قال أبو الندى:

هذه هي الدار، فليكن لنا فيها مرور على كليم أبي الطيب النوابع.

قلت :

لا شيء لي من ذلك، ولكنني وددت أن يكون مجلسنا تنمة ما بدأناه في المجلس الأول. حتى إذا دخلنا واطمأن بنا المجلس، وأقبل علينا أبو محمّد منطلق الأسارير بدأناه بالسلام فردّ بأحسن منه.

وقلت لصاحبي أبي الندى: هل لك أن تتلو من شعر أبي محمّد في المديح؟

ولكنني استدركت فطلبت إليه أن يذكر لنا ممدوحيه فقد شغل بهم أيام الطلب.
قال أبو الندى:

وما تريد أن تقول في نفر منهم لا تعرف من حالهم الكثير، فليس عندك شيء عن محمد بن عبيدالله العلوي المشطّب، ولم يكن سعيد بن عبدالله الكلابي المنبجي أسعد حظاً لديك، ومَن يكون عبيدالله بن خلكان، وأبو المنتصر شجاع ابن محمد المنبجي الرضي الأزدي، وعلي بن أحمد الطائي، ومحمد بن زريق الطرسوسي، وعبدالله بن يحيى البحري، ومساور بن محمد الرومي، ومحمد بن اسحاق التنوخي، والحسن بن اسحاق التنوخي، والحسين بن اسحاق التنوخي، وعلي بن ابراهيم التنوخي، والمغيث بن علي بن بشر العجلي، وأبو الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي، وعلي بن منصور الحاجب، وعبد الواحد بن العباس ابن أبي الاصبع الكاتب، وعبد الرحمن بن المبارك الانطاكي، وأبو علي هارون ابن عبد العزيز الأدرجي الكاتب، وأبو الحسن بدر ابن عمار، وأبو الحسين علي بن أحمد المري الخراساني بطبرية وأبو عبدالله محمد ابن عبدالله الخطيب الخصيبي بانطاكية، والقاضي ابو الفضل احمد بن عبدالله الانطاكي، وأبو سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الانطاكي، وأبو أيوب احمد ابن المبارك، وعلي بن احمد بن عامر الانطاكي، وعلي بن محمد بن سيّار بن مكرم التميمي، وأبو بكر علي بن صالح الروذباري، والحسين بن علي الهمداني، والامير أبو محمد الحسن بن عبيدالله بن طغج بالرملة، وأبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي، ودلّير بن لشكروّز على أن بينهم طائفة وهم: سيف الدولة ابو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان العدوي، وناصر

الدولة أخو سيف الدولة، وكافور الإخشيدي، وأبو شجاع فاتك، وأبو العشائر الحسن بن علي... بن حمدان العدويّ وابن العميد محمد بن الحسين وزير ركن الدولة، وعضو الدولة البويهى بشيراز.

ولولا أن كان في عدة هؤلاء سيف الدولة وبدر بن عمار وكافور وابن العميد لكان جل ممدوحى أبي الطيب هَيّان بن بَيّان.

قال أبو الطيب:

ليس لك، أبا الندى، أن تقول هذا، فقد كان جلُّ هؤلاء قومًا أولي بأسٍ ورأيٍ وسلاح، وإن لم يكونوا ذوي ألقاب وأصحاب رئاسات وإمارات.

قلت:

ولكني أرى أن جلّهم من أهل الشام ولولا ابن العميد وعضد الدولة وركن الدولة، لقلت: ان أبا الطيب شاعر شاميّ:

ولقد أصاب الذي جعلك يا أبا الطيب شامياً، فقد صرفت الى الشاميين وعلى رأسهم سيف الدولة طائفة جليلةً من شعرك.

ولا أدري كيف صنع الثعالبي في «اليتيمة» وكيف نظر الى شعرك في «شاميته» والى مرباك ومدرجك في الكوفة!

وقد يعجب المرء ألا يجد العراق في شعرك فلن تقرأ فيه بغداد ولن تجد للبصرة أثراً، ولن تقف فيه على أمير أو خليفة عباسي، ولولا شذرات ورد فيها اسم الكوفة غير مقصود إليه لكانت الكوفة مما طوي ونسي في شعرك. ولا أدري كيف قلت:

أمنسي السكونَ وحضر موتاً ووالدي وكندة والسبيعا

ولقد أحسنت في قولك:

وكلُّ امرئٍ يولي الجميل محببٌ وكل مكانٍ يُنبِت العزَّ طيبٌ

قال أبو الطيب:

ما تفتأ تلمِزني بحلو عبارتك، وقد سطع شعري بالفرائد اللآلئ مما يزين به المتأدب كلامه، ألم يبلغك ما كان للصاحب بن عباد الذي توفيت أخته

فوردت إليه الرسائل تترى تُعزّيه وترثي أخته فكان جلها يبدأ بقولي في رثاء أخت سيف الدولة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزَعْتُ فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى إذا لم يَدْعُ لي صدقَه أَملاً شَرِقت بالدمع حتى كاد يشرُق بي
فزاد حزنه لما كان من بغضه لي، وقد ساءه أن أكون الشاعر الذي ملأ
الدنيا وشغل الناس .

أما علمت أنه دفع المتشاعرين والمتأدين الى أن يصنفوا في قدحي والنيل
من أدبي وفني، وأنا القائل :

أَرى المتشاعرينَ غَرّوا بذمي ومن ذا يَحْمَدُ الداءَ العُضالاً
وقولي :

أفي كل يومٍ تحت ضِئبي شويعر ضعيفٌ يُقاويني قصيرٌ يُطاولُ
قال أبو الندى :

إذا كان لنا أن نبدأ الكلام في شعر المديح فإني أقول إنه مادة ديوان أبي
مُحَمَّد، وإن من ممدوحيه وهم سيف الدولة وبدر بن عمار وكافور قد كان لهم من
الديوان نصيب كبير ولا سيما سيف الدولة الذي اختص به أبو الطيب وصحبه
في سلمه وحربه، صحبه في رحلاته الى بلاد الروم وحضر المعارك ووصفها في
قصائده . وما كان أبو الطيب بدعاً بين الشعراء في هذا . لقد شغل باب المديح
في ديوان ابن الرومي ما يفرّق في عدّة دواوين، كما كان الأمر نفسه في شعر أبي
تمام والبحري، وغير هؤلاء من شعراء العربية .

قال أبو الطيب :

لم تبلغ، أبا الندى، الغاية فيما قلت، وكان عليك ألا ترى ان المديح في
شعر العرب اشتمل على اغراض أخرى ما خلا المديح . وإني لأجعل الفخر
والحماسة من حواشي المديح، وإن الرثاء ضرب من المديح وليس لك أن تحبسه
على الجفن القريح والفؤاد الجريح .

وأني لي ان ابسط النظر في الحياة والناس في غير شعر المديح . . . ؟ وما

لكم دعوتهم المادح متكسباً مستجدياً، وهلا كنتم أجواداً أسباحاً مع الشاعر تندى
منه كلمة خير في سَمَحٍ يستحق أن يُنَوَّه به ويشاد بمروءته؟

ما أوجدنا بني البشر يكيد بعضنا لبعض، وهل من عجب إنَّ الإنسان
لرَبِّه لكنود، وهل ساءني إلا الحَسَاد!

ثم ما لهؤلاء الناس أنكروا عليّ تشيبي ونسيبي، وصرفوه الى الصنعة
يتأتى فيه للشاعر أن يصل الى مديح أو نحوه؟

ليس ذاك حقيقة في الأمر، فما أبعدكم عن الصواب.

قلت:

لقد وجدتما سعة فأفضتما في الحديث فهلا تركتما لي ما أود أن أجول فيه
كما جلتهم، ولنعد الى شعرك فنلتمس أبا الندى أن يتلو ما يختاره من المديح.
وليكن في اختياره اختيار للممدوحين فيكون فيهم المغمور والمشهور.

قال أبو الندى:

كأنني بك أبا الطيب قد وزَّعت الخلال الحميدة على ممدوحيك فأفرغت في
كل منهم صفة يقتضيها فن المديح، وجعلت جملة من هذه الصفات ملكاً يأخذ
كل منهم منه بنصيب.

إنهم شجعان مساميح، مساعير حرب، أهل رأي وسداد، يخفون عند
الفرع ويتقدمون الى الرُّوع، وتكاد لا تفقد صفة من هذه في قصائدك كافة.

قال أبو الطيب:

أتريد أن تقول: إنك صاحب صنعة؟ وملاك الصنعة أن تهَبَ ممدوحك
ما يملك وما لا يملك.

قلت:

لا تبتش، أبا محسَّد، وما كان أبو الندى ليخوض في شعرك، وربما خانه
القول فذهب به الى غير ما أراد.

وسأعود الى ما تلاه من القصيدة الأولى التي زعم صنَّاع دواوينك الى أنك

قلتها في المكتب تمدح رجلاً واردة أن تستكشفه عن مذهبه فقلت:
كُفِّي! أراني وبيك لومك ألوما هم أقام على فؤاد أنجمًا
وخبال جسم لم يُخلّ له الهوى لحماً فينحله السقام ولا دما
وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لظننت فيك جهنماً
الى قولك:

غصن على نقوي فلاة نابت شمسُ النهار تُقِلُّ ليلاً مظلماً
قال أبو الندى:

لا أدري ما أقول في هذه «المقدمة»، ولا أعلم كيف سيلفظها ليصل الى
الممدوح...

قال أبو الطيب:

لقد شغلنا بكم أيها النقاد، وانتم تعلمون اني لست كغيري من ساقه
النظامين، ولكن أثق بأهل العلم منكم، ألم تعلموا اني ارتضيت صنعة ابي
الفتح عثمان ابن جني في «النسر».

قلت:

لا يبتس أبو محسّد بقول ابي الندى في أبيات النسيب التي ابتدأت بها
القصيدة. غير اني أحس أنها تمهيد ييسر للقارئ أن يدخل في رحاب شعرك.
ولكني أقول: من هذا الممدوح الذي اكتفى صنّاع الديوان فقالوا:
«رجل».

وكأنهم أخطأوا لأنك قلت في القصيدة:

يا أيها الملك المصفى جوهرأ من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيّه فتكاد تعلم علم ما لن يعلمأ
ويهم فيك اذا نطقت فصاحة من كل عضو منك أن يتكلأ
أنا مبصر وأظن أني نائم من كان يحلم بالإله فأحلمأ
كبر العيان عليّ حتى إنه صار اليقين من العيان توهمأ
يا من لجود يديّه في أمواله نقم، تعود على اليتامى أنعمأ
حتى يقول الناس ماذا عاقلاً ويقول بيت المال ماذا مُسلياً

لا أدري لم أغفل أهل الدرس هذه القصيدة ولم يتبينوا هذا الممدوح العلويّ النسب، وكأنك أبا الطيب تمتّ الى هذا النسب، وترى رأيّ أهل طائفتك في الامام «المصفيّ جوهرًا» من ذات الله ذي الملكوت الذي سما على كلّ من سما. وهو كيت كيت مما يعرف من الأبيات، كأنه غير سائر الناس. ولم تنس ان تقول: إنه جواد يجود بأمواله على اليتامى، وأنه لم يترك مستحقاً للمال إلاّ اعطاه.

أقول: كأن الأبيات التي تقدّمت في النسيب كانت «مقدمة» ملغاة، ولا حاجة أن نطيل الكلام لنصل الى هذه الفوائد.

قال أبو الندى:

لنبداً غط المديح الذي كثرت نظائره في شعر أبي الطيب فنفيد من كوننا في مجلسه نتلو شعره ونسمعه إياه. وكأني به يقول لو كان هذا كذا لكان أحسن، ولو كان ذلك كذا لكان له غير ما كان في الصورة الأخيرة.

أما سمعت قول أبي الطيب في سعيد بن عبدالله بن الحسين الكلابي المنبجي.

فيقول:

أحيًا وأيسرُ ما قاسَيْتُ ما قَتَلَا والبين جَارَ على ضَعْفِي وما عَدَلَا

لولا مفارقة الأحباب ما وَجَدَت لها المنايا الى أرواحنا سُبُلَا
بما بجفنيك من سِحْرِ صِلِي دَنَفَا يهوى الحياة وإِما إنْ صَدَدَتْ فلا

إلى أن يقول:

علّ الأمير يرى ذليّ فيشفّع لي الى التي تركّنتني في الهوى مثلاً
أيقنّت أن سعيداً طالبٌ بدمي لما بصرت به بالرُمح مُعتَقِلاً
قيلُ بمنّيجٍ مثواه ونائله في الأفق يسأل عمّن غيره سألَا

ترابه في «كلاب» كحل أعينها وسيُفه في «جناب» يسبق العدَلَا

.....
هو الأمير الذي بادت «تميم» به قدما وساق إليها حينها الأَجَلا
لما رأوه وخيل النصر مقبلةً والحربُ غيرُ عَوَانٍ أسلموا الحِلَلا
وضاقت الارض حتى كأنَّ هاربهم إذا رأى غير شيء ظنَّه رجلا
فبعده والى ذا اليوم لو ركضت بالخيل في لهوات الطفل ما سَعَلَا
أشهد ان النسيب في اول هذه القطعة صنعة شاعر أيّ شاعر، وهو
يفرض عليّ أن صاحبه محبٌ كلف، وإن لم يُنَحَّ له في مقام هذه القصيدة ان
يتوجه الى حبيبة يعرفها الناس. وهو صادق اللهجة في هذا التقمص للمحب
الملتاع.

قلت:

كأنك أردت أن تعقد مودة جديدة بينك وبين أبي الطيب، أو أنك
خشيت أن يكون قد كبر في نفسه ما قلته فيه.

ولا أريد أن اترك القصيدة قبل ان أقول لأبي الطيب: أترى قد أصبت
الإحسان في «تخلصك»، وهل كان ذلك من باب ما دعاه أهل البديع بـ «حسن
التخلص» وهو قولك:

عَلَّ الأميرَ يَرَى ذليّ فيشفع لي

ما زدت على أن جعلت الأمير الممدوح بعض خاصتك تسيره في حاجتك
التي ما أظن انك تجهل منزلتها.

قال أبو الطيب:

ليس لي أن أردّ عليك فقد أصبت، ولكنكم معشر النقاد لا تعاون ما
يعانيه ربُّ قواف تأتيه تارة طيبة مواتية إذا هي تتنكر له فتعود شُمساً لا يُكفكف
جماحها.

ولو كنت ممن جرّب هذا العناء لأقررت لي، وما أظن انك تجهل قول
هَمّام بن غالب الفرزدق الشاعر في القافية التي عانى من وضعها في موضعها ألماً
أخف منه قلع ضررس.

ثم يدخل الأمير الممدوح ميدان المعركة فتبيد «تميم» وتضيق الأرض عن الهارب ويترك من لاقاهم جَزْراً، وأما من لم يجده منهم فقد مات وجلاً. فقد تركت الألى لاقيتهم جَزْراً وقد قَتَلت الألى لم تلقهم وجلاً هذه جملة صالحة من مادة القصيدة في نسيبها ومدحها ووصفها، فأين أبو محسّد وما كان لك منها:

قال أبو الندى:

لا عليك فذلك أبو محسّد ممن شهد القتال وكان له فيه حضور الشجاع، أما سمعته يقول:

كم مَهْمِهِ قَذَفَ قَلْبُ الدليلِ به قَلْبُ المحبِّ قضاني بعدما مَطَلَا
عَقَدْتُ بالنجم طَرْفي في مَفَاوزِهِ وَحُرَّ وجهي كَحَرِّ الشمسِ إذ أَفَلَا
أوطأتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفٌّ يَعمَلِي تَغَشَمَرَتْ بي اليك السهْلُ والجَبَلَا
لو كنتَ حَشَوَ قميصٍ فوقَ مُثْرِقِهَا سمعتُ للجنِّ في غيظانها زَجَلَا
حتى وَصَلْتُ بنفسٍ مات أكثرها وليتني عشتُ منها بالذي فَضَلَا

قلت:

هذا هو أبو الطيب يحضر البأس فيأتي على لسانه وكأنك تراه رأي العين، وما كان كغيره من الشعراء يحضرون مهئين بالفوز مادحين يرضون من البأس أن يفوزوا بما يجاد عليهم.

وليتك أبا محسّد لم تنه هذه القصيدة العامرة بقولك:

أرجو نداك ولا أخشى المطال به يا من اذا وَهَبَ الدنيا فقد بَخِلَا
أقول: أترك لم تفز بندقى الممدوح لو لم تلحّ في الطلب الذي «لا تخشى المطال به»؟

قال أبو الطيب:

تذكرون علينا أن نسلك هذا الطريق فيكون منا نثر اللآلئ الفرائد بين يدي الممدوح وتقرّون عيناً بذلك، وتأبون أن يكون منا سؤال؟ فقال قوم: كان أبو الطيب بخيلاً شحيحاً، واصطنعوا في ذلك الكذب المزدول.

وقال آخرون: وما ترجو من ابن سقاء يبيع الماء في سوق الكوفة.
وقالوا وقالوا.

فأنا ابن الكرام البررة.

ثم ألا ترون أن مثلي لا يكون له أن يكسب العيش بمهنة السوق، أأكون
حائكاً أم أكاراً أم نحو هذا، وانتم تدركون ما الحائك، وما الأكار؟

قلت: أبا محسد، لا عليك فقد عرفنا هذا الذي يحزنك.

وأنت صاحبي أبا الندى، لقد سمعنا منك منذ أيام سينية أبي الطيب
يمدح محمد بن زريق الطرسوسي.

هذي برزت لنا فهجت ريسا ثم اثنيت وما شفت نيسا
.....
.....
.....

الى ان يقول:

بيضاء يمنعها تكلم دها تيهأ ومنعها الحياء تميسا
لما وجدت دواء دائي عندها هانت علي صفات جالينوسا
ابقى زريق للشغور محمداً أبقي نفيس لنفيس نفيسا
فما تقول أبا الطيب في نسبك هذا الذي سمعنا منذ أيام، وما أرى أبا
الندى الا ذاكراً منه قولك:

خود جنت بيني وبين عواذلي حرباً وغادرت الفؤاد وطيسا
فقد قال فيه، وكنت قد برحت مجلسك هذا:

لعن الله هذا النسب الذي جرّ الى حرب حي فيها الوطيس بين عاشق
«لم يدخل العشق قلبه» وعواذل مبغضات ساعيات في الشر.

قال أبو الطيب:

ما كنت خفياً بهذه القصيدة التي غلبت علي وقسرتني فيها السين على أن
آتي بهذه «الترهات».

قلت: لله درك أبا محمّد، لقد قيل: إنّ الشاعر حفيّ بيناته من قصائده
وكلهن لديه كرائم، فكيف جرى لسانك على ما كرهت أن تفضي به؟ إنها لجرأة
قاسية، والجرأة موطن قسوة، ولولا القسوة ما دُعيت جرأة.

قال أبو الندى:

ولم نقف على تحوّل أبي الطيب من النسب إلى المديح؟
قلت: كثرت علي وجوه القول فنذّ عني ذلك.
ما كان لأبي محمّد طريق رفيق يتحول فيه إلى ممدوحه فيتحقق ما دُعي
به «حسن التخلص».

وقد حمدت لأبي الطيّب أن قال: إن «السين» قسرتني على أن أدخل فيها
فأعاني من «ترهاتها».

نعم، لقد دلتك السين على «جالينوس» الطبيب الاغريقي المعروف، كما
زلت بك القدم فاستحضرت لها موسى وعيسى والمجوس وابليس وقد دعاك حيّز
القصيدة إلى أن تفيض من علمك التاريخي فتأتي على ذكر «ذي القرنين»، وذكر
«عازر»، وانشقاق البحر لموسى - عليه السلام - وغير هذا. وكأن حيّز قصيدتك
قد ضاق ذرعاً بهذه الشخصوص.

قال أبو الطيب:

لك أن تقول ذلك...

قال أبو الندى:

وهل لنا أن نعرض لمسائل لغوية وقعت في القصيدة؟
قلت: لا تتعجل فتلك مسائل سيكون لها مجلس حافل، وليت أبا الفتح
يكون معنا فنناشده في الجواز والرخصة، في حد ما ندعوه ضرورة الشعر.

وأني لأربأ بك، أبا محمّد، أن يكون في مسألتك لممدوحك تعريض
أقبح من صريح السؤال، أتذكره أم نسيته؟

ولاني لأميل إلى طيّه ولكنك ألححت في طلبك، وهو قولك:
إني نثرت عليك درأً فانتقذ كثر المدلس فاحذر التدليس

قال أبو الندى:

لقد جُرْتُ، أبا الطيب على أدبك فأوردته موارد الهلكة، وجعلت المناكير
المجاهيل من ممدوحيك شموساً كزُرَيْق هذا، وعبدالله بن يحيى البحتري
وغيرهما، ما أسخاك فيما جُدت فيه من ألقاب، وإني لأتأدب بأدب الذكر الحكيم
الذي قرأت فيه قوله - عزّ من قائل - ﴿ولا تتأبّروا بالألقاب...﴾

قلت: كان عليك، أبا الندى، أن تنشّد قول الشاعر القديم في الكنية
واللقب:

أُكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءُ اللقب
ومن هؤلاء «الأمراء» المجاهيل المناكير أبو عبادة أخو عبدالله بن يحيى
البحتري، ومساور بن محمد الرومي، وهذا الرومي الأمير قد أطلت فيه وزدت
حتى قلت:

ان القريضُ شجٍ يعطفي عائذٌ من أن يكون سَواءك الممدوحُ
لقد جلّ الشعر عن أن يكون حبيساً على هذا الرومي وحده. ومدحته
ثانية في أخرى فجعلتها من قافية الذال، والذي دفعك أن تركب هذه الشُّموس
أنّ الممدوح «مساوراً» الرومي قد قضى على ابن يزداذ الثائر، فحظيت الذال
منك بقصيدة أقمتها على هذا الحرف الصعب فكان من موادك الاستاذ
والفولاذ، وكرخايا وكلواذ، من قرى سواد العراق، والبرني والآزاد من أصناف
التمر العراقي، ثم حضرت «بغداد».

لك الله أبا محسّد، لقد جئت بمدينة السلام في حشو قافية باثرة.

قال أبو الندى:

لا فضّ فوك شيخي لقد جئت بها فأحسنّت.

المجلس الثالث

قال أبو الطيب:

كأنكما تودّان أن نسمّع من المديح ما شاركتُ فيه الممدوح فتحدثتُ عن
نفسي، فهل لكما أن نعرض للميمية التي مدحتُ فيها الحسين بن اسحاق
التنوخى، والتي أقول في مطلعها:
ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعلّ بها مثل الذي بي من السقم

قال أبو الندى:

أذكر أني أسمعك، شيخي، منها قبل أن يضمنا مجلس أبي الطيب،
وأذكر أنك علّقت على حسن تخلصه الى الممدوح بعد عدة أبيات في النسيب.

قلت:

إن لم يخطئ ظني فهي تلك التي جاء فيها قوله:
ترشفتُ فاهما سُخرةً فكأنني ترشفتُ حرَّ الوجد من بارد الظلم

ثم قال ليخلص الى نفسه مفتخراً:

جفّنتي كأنّي لست أنطقَ قومها وأطعنهم والشهبُ في صورة الدُهم
أذكر أني قلت: أحسن أبو الطيب في انتقاله هذا وتحولَه الى الفخر

بنفسه.

وقد قلت فيما قلت: كان ابو الطيب فارساً شجاعاً، خبر النزال، ونزل
كلَّ يَهَاء مخوفة فظعن وقتل، وهو يقول بعد أن انصرف من صاحبه التي لا
نعرفها ولا يعرفها هو نفسه:

يُحاذرنّني حتفي كأنّي حتفُه وتَنكُزُنّي الأفعى فيقتلها سُمّي
طوال الرُدينيّات يقصفُها دمي وبيضُ السُريحيّات يقطعُها لحمي

بَرَّثَنِي السُّرَى بَرِّي أُلْدَى فَرَدَدَنِي أَخَفَّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جَرْمِي
وَأَبْصَرَ مِنْ زُرْقَاءِ جَوِّ لَأْتَنِي مَتَى نَظَرْتُ عَيْنَايَ سَاوَاهُمَا عِلْمِي
كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الْإِسْكَندَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي
فأحسن التخلص وأجاد القول، وتأتى لفخره بأدواته من «الردينيات»
و«السُّرِيَّات» ونصبه في سُراه وغير هذا مما يكون له من وصف المسالك
والصعاب، وما يكون من جواده أو راحلته التي اعانته على شقائه. وهو يأتي
فوق ذاك بفوائد يجعلها من أدواته في فخره هي بعض علمه ومعرفته، ألا تراه
عَرَّجَ عَلَى بِنَاءِ الْإِسْكَندَرِ لِلْسَّدِّ، وَاتَّخَذَ ذَلِكَ شَيْئاً أَعَانَهُ فِي قَوْلِهِ: أَنَّهُ صَاحِبُ
عِزٍّ لَا يَعْرِفُهُ أَفْذَاذُ الرِّجَالِ.

قال أبو الطيب:

كَأَنَّ بِكُمْ حَاجَةً لَمْ تَصِلَا إِلَيْهَا، وَهِيَ شَيْءٌ مِمَّا يَهْمُكُمْ أَمْرُهُ.

قال أبو الندى:

أَتُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّكَ أبا الطَّيِّبِ، لَمْ تَقْصِرْ مَدْحَكَ عَلَى شَجَاعَةِ الْمَدْمُوحِ
وَإِجَادَتِهِ فَنَ الْقِتَالِ طَعْنًا وَقِتْلًا، بَلْ تَجَاوَزْتَ ذَلِكَ إِلَى وَصْفِكَ الْمَدْمُوحِ بِاللِّسَنِ
وَالْفَصَاحَةِ وَأَنْتَ قُلْتَ:

وَأَسْمَعَ مِنْ أَلْفَافِهِ اللَّغَةِ الَّتِي يَلْدُّ بِهَا سَمْعِي وَلَوْ ضُمُنْتَ شَتْمِي

قُلْتَ:

أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ، أبا الندى، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَصِبِ الْغَرَضَ الَّذِي أَوْمَأَ إِلَيْهِ أَبُو

الطيب.

قال أبو الندى:

لَقَدْ اسْتَفْرَغْنَا الْقَصِيدَةَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا بَقِيَّةٌ لِقَوْلِ.

قلت:

كَأَنِّي بِأَبِي الطَّيِّبِ قَدْ أَرَادَ التَّخْلَصَ الْحَسَنَ مِنْ فَخْرِهِ بِنَفْسِهِ إِلَى التَّحَوُّلِ إِلَى

مَدْحِ مَدْمُوحِهِ، أَلَا تَرَى، أبا الندى، أَنَّ أبا الطَّيِّبِ قَدْ قَالَ:

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الْإِسْكَندَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي

لِيَقُولَ بَعْدَ ذَلِكَ «مُتَخَلِّصًا» مُجِيدًا:

لألقى ابن اسحاق الذي دق فهمه فأبدع حتى جَلَّ عن دقة الفهم
ثم يمضي في مديحه

قال أبو الطيب:

هو ذاك الذي أومات إليه . ثم إني استحضر في مديحي ما عُرف في
المدوح، وليست هي خلال حميدة أضعها بين يدي فأوزعها في فلان وفلان .
قلت:

ربما أومات إلى ما كنا قد تحدثنا فيه في مجلسنا الأول . وأود أن أضيف
فأنبه أبا الندى إلى قول أبي الطيب في معرض مديحه:
فدئى من على الغبراء أولهم أنا لهذا الأبيّ الماجد الجائد القرم
وقوله هذا قد جرى عليه في قصائد أخرى ليظهر فضل المدوح العميم،
الذي يجب أن يقابل على هذا النحو من التضحية والإخلاص . ولكنه شطح في
إثبات شجاعة المدوح وفراسته فذهب في ذلك إلى قوله فيه:
لقد حال بين الجرن والأمن سيفه فما الظن بعد الجرن بالعرب والعجم
وكانه إذا أراد أن يضفي على المدوح صفة الكمال شطح إلى ما يشبه
الإحالة فاقترب من الكفر، وقد رأينا شيئاً من هذا فعرضنا له في مجلسنا الأول،
وسيكون منه مسائل أخرى سنقف عليها في مديحه .

قال أبو الندى:

لم يكن لي أن أعقب لولا ما سمعت من شيخي في أمر ما يشطح به
اللسان، وهو مستغرب الكلم الذي غلب عليه . ومن ذلك ما أنسبه إلى
شطحات أبي محمّد، وهو في نشوة المديح في مدح علي بن سيّار بن مكرم
التميمي:

ولمّا قلت الإبل امتطينا إلى ابن أبي سليمان القلوبا

ومثل هذا من قوله في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران:

إنّي على شغفي بما في خمرها لأعفّ عما في سراويلاتها

ولو أنكم قرأتم تعليق ضياء الدين ابن الأثير في «المثل السائر» لأدركنم أن أهل الرأي قد نكروا قوله هذا فقال فيه أحدهم: ان الفسق أهون من «عفة» أبي الطيب.

ومن هذا ما ورد من قوله في مدح أبي سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الانطاكي:

لو استطعتُ ركبَت الناس كُلَّهُمُ الى سعيد بن عبدالله بُعرانا
أَيكون كرم أبي الطيّب قد تجاوز الحدود وأساء فيه الى الناس، وكأني
بالممدوح قد أبى عليه هذا الغلو والاستكبار، وهو وأبو الطيب من الناس.

قال ابو الطيب:

على رسلك أبا الندى، لو أنك كنتَ في مقامي، وأنا أعدُّ القصيدة،
وعانيتُ ما كنتُ أعانيه، لوجَدْتُ من سِماحتك وأدبك ما يخفف من مقالتي في،
أما قرأت من قولي في مدح علي بن منصور الحاجب:
أظمَنتي الدنيا فلما جئتُها مُستَسْقياً مَطَرَت عليّ مصائباً
قلت:

كنت أودّ الا نتعجل في الخوض في مسائل تتصل بلغة أبي الطيب وصنعتة
الأدبية. ولنمض في حاجتنا في استقصاء باب المديح. وقد حظي علي بن
ابراهيم التنوخي من أبي الطيّب بعدة قصائد محجّلة، ولنقف على واحدة
مشهورة منها وهي التي مطلعها:

أحقُّ عافٍ بدمعك الهمُّ أهدتُ شيء عهداً بها القَدَمُ
قال أبو الندى:

كأنك تريد ان تُحاور فيها أبا الطيب، وقد كنّا أنت وأنا قد وقفنا منها على
موارد كان لنا فيها بحث جاد، فهل بقي من ذلك بقية لقول؟ كأني بك تبغي أن
تسأل أبا الطيب عن عزوفه عن مقدمة النسيب...

قلت:

قد يكون شيء من هذا، ولكني أردت أن أقول: ان المقدمة في النسيب

ليست ضرورة، وإن لأبي الطيب منه ما يفي بهذا الغرض، ذلك أنه قد يبلغ به التأثير في حماسة تطوي ذكر النسيب، وليست به حاجة للنسيب كما سنرى في مجلس قادم.

قال أبو الندى:

ألكما أن نسمع مديحه في المغيث بن علي بن بشر العجلي؟

قلت:

إن لأبي الطيب فيه قصيدتين، وكأنك تومئ إلى البائية التي عرضنا لها من قبل فلم نظفر بحاجتنا، وقد جاء في مطلعها:

دمع جَرَى فَقَضَى في الربع ما وَجَبَا لأهله وَشَفَى أَنَّى ولا كَرَبَا

وقد مررنا بالنسيب فلم يستوقفنا قوله:

هَامَ الفؤاد بأعرابية سَكَنْتُ بيتاً من القلب لم تَمُدُّ له طُنبَا

وقد قلنا في قول أبي الطيب: إن قوله: «لم تَمُدُّ له طُنبَا» شيء اقتضاه

سلطان القافية، ذلك إنها «سكنت القلب».

وقد أنسنا بل ضحكنا لقوله:

مررت بنا بين تَرْيُّبِهَا فَقُلْتُ لها من أين جَانَسَ هذا الشادَنُ العَرَبَا

لأننا عجبنا من عُنف أبي الطيب الذي لوى «جيد» البيت ليصل منه إلى

المدح إذ قال:

فاستضحكت ثم قالت «كالمغيث» يُرى ليث الشرى، وهو من «عجل» إذا انتسبنا

وفي البيت جاء «المغيث» وصفاً لها، وهو اسم المدح أيضاً، وهو

المقصود، لأنه «ليث الشرى» وهو من قبيلة عجل.

ولي أن أسأل أبا الطيب: «أأنت راض عن هذه التورية، ألا ترى في

«المغيث» وهو ليث الشرى ثم يكون من «عجل» ضرباً من عدم التناسب؟

قال أبو الطيب:

شدَّدت علي الحساب، ألا ترى أن الشاعر مُتَحَنّ تشتد عليه محتته فيضيق

به العطن، وإن لوازمه كُثِر، والوصول إليها، والوفاء بها لا يتأتى إلا لصاحب

فَرَّ مُجِيد، وَقَدْ تَشْتَدُّ الْمَحَنَةُ فَتَزُلُّ بِهِ الْقَدَمُ. ثُمَّ أَلَيْسَ لِي أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَلِكَ
الْمُجِيدُ صَاحِبُ الْفَنِّ، وَإِنِّي تَمَنَّيْتُ تَعْرِفَهُمْ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

قال أبو الندى:

مدح «المغيث» فأجاد ومدح معه قومه بني عجل فقال:
هَزَّ اللِّوَاءَ بَنُو عَجَلٍ بِهِ فَعَدَا رَأْسًا لَهُمْ وَغَدَا كُلُّ لَهُ ذَنْبَا
التَّارِكِينَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَهْوَتْهَا وَالرَّاكِبِينَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا صَعُبَا

عَمَامَةٌ نَزَفَتْ شَعْرِي لِيَمْلَأَهَا فَآلَ مَا امْتَلَأَتْ مِنْهُ وَلَا نَضْبَا
لَمَّا أَقَمْتُ بِأَنْطَاكِيَّةٍ اخْتَلَفْتُ إِلَيَّ بِالْخَبَرِ الرِّكْبَانُ فِي حَلْبَا
فَسِرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ أَحْتُ رَاحِلَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا

وقد فاتني أن أتلو شيئاً من غلوه في وصف جود المغيث وسماحته:
وَلَا يَرُدُّ بِفِيهِ كَفٌّ سَائِلُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيُرْدُّ الْجَحْفَلَ اللَّجْبَا
وَكَلَّمَا لَقِيَ الدِّينَارَ صَاحِبَهُ فِي مُلْكِهِ افْتَرَقَا مِنْ قَبْلِ يَصْطَحِبَا
مَالٌ كَأَنَّ غَرَابَ الْبَيْنِ يَرْقُبُهُ فَكَلَّمَا قِيلَ هَذَا مُجْتَدٍ نَعْبَا

قال أبو الطيب:

وما عندكما فيما قلت، كأنك، أبا الندى، تقول: قد سئمت المقام في
حَلْبٍ، وَإِنَّ الْقَوْمَ بَرِمُوا بِإِقَامَتِي، وَلَمْ يَبْقَ لِي فِيهِمْ مَا أَفِيدُ، وَكَانَ لِي مِنْ ذَلِكَ
الكثير.

وكأنك تعيب عليّ إظهار حاجتي وفقري، وأني لا أملك إلا أدباً أجعله
عَدَّتِي وَرَأْسَ مَالِي، وَكَأَنَّكَ تَذَكَّرْنِي بِمَا قُلْتَ فِي عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّنُوخِيِّ:
وَشَغَلَ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي بَيْعُ الشَّعْرِ فِي سَوَاقِ الْكِسَادِ
اتَّقِ اللَّهَ، أبا الندى، فيّ، وَلَا تَذْهَبْ فِي شُبُهَاتِكَ فَتَشَايِعَ قَوْمًا جَحْدُونِي
حَقِّي وَأَنْكُرُوا فَضْلِي وَتَقْدَمِي.

قلت:

أراك، أبا الندى، عرّضت ولم تصرّح، وأي شيء أردت أن تقوله في
الآبيات الثلاثة التي تقدمت في ممدوحه؟

كأنك أردت أن تقول: إنها صنعة شاعر عرف كيف يتسع فيما يريد قوله.
لقد أفدنا من قصيدة شاعرنا أبي الطيب، وكنت أود لو أنك ابتدأت
التلاوة فتلوت الميمية التي كانت من أدب أبي محسّد الصميم...
قال أبو الطيب:

وليس لي شيء من قولك «أدب صميم» أتريد أن تقول إنك عزفت فيه
عما اصطلاح عليه من «المقدمات» في النسيب، تلك «المقدمات» التي حيرت
أصحابها فلم يفلحوا في طرحها عنهم وإلقاء العبء عنهم، ولا أقول:
«التخلص»؟ أردت أن تقول: إني ركنت إلى أمر أقوم له وأقعد، وهو مقامي بين
الناس، وسلوكي معهم وما كان لي من سوءاتهم. وأنا في هذا أطلق لنفسي
العنان لأقول ما اهتمت له، ولا يهمني أن أغضب فلاناً أو غيره.

قلت:

أحسنّت القول، وأصبت الغرض، وإني لأرى ما ترى من أنك إذا
حزّبتك أمر، وأخذ منك مأخذه فأنت إليه أسرع منك إلى أمر آخر تأتي إليه بما
اعتاد أهل الفن أن يباشروا من أمره. وهكذا ملّت إلى طبعك في هذه الميمية
فقلت:

فؤاد ما تُسليهِ المدام وعمرٌ مثلاً تهبّ اللثامُ

في ميميتك هذه جمعت بين نفسك أو قلبك أو عقلك وبين التوجه إلى
صاحبك المغيث بن علي العجلي. وكان القسم الأول نصيف مادة القصيدة وهي
غرضك كما أن المدح غرض لك. وليس الأمر فيها كشأنك في قصائد أخرى
كثيرة جريت فيها على ما جرى عليه غيرك من الشعراء، إذ لا بد فيها من
«مقدمة» أو تمهيد يُتقلّ منه إلى المديح.

وأتيّت فيها على ما يحزبك من شجون فقلت في الناس:
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغار وإن كانت له جثث ضخام

وقد أبعدت نفسك عنهم وإن كنت تعاشرهم، تحتاج إليهم، ويحتاجون اليك، وقلت:

أَرَانَبُ غَيْرَ أَنَّهُمْ مَلُوكٌ مَفْتَحَةٌ عُيُونُهُمْ نِيَامٌ
وليس لي أن أذهب الى سائر الأبيات التي عرضت فيها للناس، لأننا جعلنا لذلك مجلساً آخر غير هذا.
ولنعرض للأبيات الأخرى التي تتصل بالأفكار الأخرى، ومن ذلك؛
قولك:

ولو حيزَ الحفاظَ بغير عقلٍ تَجَنَّبَ عُنُقَ صِيقَلِهِ الْحِمَامُ

.....
ولو لم يَعْلُ إِلَّا ذُو مَحَلٍّ تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقِتَامُ
ولو لم يَرِعَ إِلَّا مُسْتَحِقُّ لِرَتْبِهِ أَسَامُهُمُ الْمَسَامُ
ومن خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظِلَامٌ
إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السُّكْرَ وَالشَّيْبُ هَمًّا فَالْحَيَاءُ هِيَ الْحِمَامُ
وما كُلُّ بِمَعْدُورٍ بِبُخْلِ وَلَا كُلُّ عَلَى بُخْلٍ يُلَامُ
لقد شُغِلَتْ، أبا الطيب، بهذه الفرائد فأرسلتها قولاً جميلاً يردده
المعجبون في كل عصر، ولا أقول: «حكمة»، فهذه كلمة قديمة جنى عليها أهل
العلم فصيروها طَبًّا، وَفَلَكًا وفلسفةً وغيرها.
ولا أذهب في قولك:

«ومن خبر الغواني فالغواني»

الى ما ذهب إليه نفر من أهل الدرس فزعموا فيما زعموا انك تومئ الى
عالم النور وعالم الظلام ممَّا يقوله «الثنوية». ولكنني اذهب معك في سباحة ويُسر
الى أنك لا ترى في الغواني ولا في النساء إلا بهرجاً وزَيْفًا.
ورضيت لك هذا الفهم للحياة الجادة التي تشعر بالحياة ماثلةً بعيدةً عن
الوهم والخيال في قولك:
إذا كان الشَّبَابُ السُّكْرَ وَالشَّيْبُ هَمًّا فَالْحَيَاءُ هِيَ الْحِمَامُ
قال أبو الندى:

كأنك، شيخى، قد شُغِلتَ بشاعرك، وإني لأعرف من مودَّتكَ له، وأذكر
أن ديوانه كان الأثير بك تؤثره على سائر دواوين الشعراء. وإني وإن كنتُ غرسَ
يَدَيْكَ، وأحسو من كأسك لشديد الصلة بصاحبك أبي محسّد، ذلك ما أورثنيّه
من كريم الخلال. فهل لي أن أقول لكما ما كنت قد أخذته أيام الطلب، وهو
قولة أحد أهل العلم: أبو تمام والمتنبي حكيان، والشاعر البحري.
فماذا تقولان في هذه المقولة؟

قال أبو الطيب:

لا أعرف مَنْ يكون هذا القائل، ولكني أعرف أبا تمام، وقد حفظت من
شعره قبل أن أقرزم شيئاً، ورضيت يومئذٍ ما كنت حفظته منه لنفسي.
غير أني أنكر أن يكون حبيب بن أوس قرناً لي أو إني وإياه فرسا رهان.
فَنَشْتُ عن «الحكمة» في شعره فلم أجدها إلا في أشتات يسيرة اقْتَطَفْتُ ثمرةً
فَجَّةً، ما كانت الألسنة لتقبل منها السائغ المستطاب، وأقَى له ذلك:
أنا مُملء جفوني عن سواردها وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَراها وَيَخْتَصِمُ
قلت:

قَطَعْتُ جَهِيْزَةً قَوْلَ كُلِّ خطيب.

ولنتقل الى ممدوح آخر لا نعرف من حاله إلا القليل هو ابو الفرج أحمد
ابن الحسين القاضي المالكي.
وما أظنك، أبا الندى، قد تلوت الفائِية التي توجّه فيها شاعرنا الى
القاضي المالكي.

قلتُ: لا أعرف هذا القاضي المالكي، والذي في حفطي هو القاضي عبد
الوهاب المالكي، الذي هَجَرَ مدينة السلام لأنه لم يجد فيها أسباب العيش. قد
يكون المالكي القاضي احد اصحاب المتنبي، وكان من محبيه يؤثره بمودته فخصّه
بمدحه الذي ضَنَّ على كثير مَن سألوه أن يقول فيهم شيئاً.

إنه قاض من أهل العلم، فلا بد أن يُثني على علمه وفضله، فهل لك أن
تتلو الفائية يا أبا الندى لنستمع اليها؟

قال أبو الطيب:

هو بعض أحبائي أحببته كما قلت لفضله وعلمه

قال أبو الندى:

دونك الفاتية، ولا أريد أن أثقل عليك بما يدثت به من نسيب، لأنني

أعرف من رأيك في الطبع والصنعة، ألك ان تسمع المطلع وهو:

لَجَنِيَّةٍ أَمْ غَادَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ لَوْحَشِيَّةٍ لَا مَا لَوْحَشِيَّةٍ شَنَفُ

وفيها يقول:

.....
.....

أَرَأَيْتَ دَمِي مَنْ بِي مِنَ الْوَجْدِ مَا بَهَا مِنْ الْوَجْدِ بِي وَالشُّوقِ لِي وَلَهَا جِلْفُ
إلى أن يقول:

صَنَى فِي الْهَوَى كَالسُّمِّ فِي الشَّهْدِ كَامِنًا لَذِذْتُ بِهِ جَهْلًا، وَفِي اللَّذَّةِ الْحَتْفُ
فَأَفَنَى وَمَا أَفَنَتْهُ نَفْسِي كَأَنَّمَا أَبُو الْفَرَجِ الْقَاضِي لَهُ دُونَهَا كَهْفُ
وهكذا عَزَفَ عَلَى عَجَلٍ عَمَّا كَانَ لَهُ مِنْ نَسِيبٍ لِيُخْلِصَ إِلَى الْقَاضِي
المالكِي الذي مَدَحَهُ فَأَشَارَ إِلَى فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَعَلِمِهِ فَقَالَ:

قَلِيلَ الْكَرَى لَوْ كَانَتْ الْبَيْضُ وَالْقَنَا كَأَرَائِهِ مَا أَغْنَتْ الْبَيْضُ وَالزُّعْفُ
يَقُومُ مَقَامَ الْجَيْشِ تَقْطِيبُ وَجْهِهِ وَيَسْتَغْرِقُ الْأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ
وإِنْ فَقَدَ الْإِعْطَاءَ حَنَّتْ يَمِينُهُ إِلَيْهِ حَنِينَ الْإِلْفِ فَارَقَهُ الْإِلْفُ
أَدِيبٌ رَسَتْ لِلْعِلْمِ فِي أَرْضِ صَدْرِهِ جِبَالُ جِبَالِ الْأَرْضِ فِي جَنْبِهَا قُفُ

ثم أطال في هذه الصفات إلى أن قال:

قَصْدَتُكَ وَالرَّاجُونَ قَصْدِي إِلَيْهِمْ كَثِيرٌ وَلَكِنْ لَيْسَ كَالذَّنْبِ الْأَثْفُ
وَلَا الْفَضَّةَ الْبَيْضَاءُ وَالتَّبَرُّ وَاحِدًا نَفُوعَانِ لِلْمُكْدِيِّ وَبَيْنَهُمَا صَرْفُ

قلت:

لقد أقدتْنَا بالذي بَسَطْتَ فِي هَذِهِ الْفَاتِيَةِ الْمُحْجَلَةَ.

المجلس الرابع

قال أبو الندى:

هل لنا أن نعرض لبائية شاعرنا التي حفظها أهل الأدب، وقالوا فيها ما قالوا:

قلت:

كأنك تقصد المحجلة في بحر الكامل التي مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا
تلك التي أكثر فيها من وصف «شموسه»، وهل لك، أبا محسد، منهن
شمس واحدة. حتى إذا انتهيت من «المنهيات» و«الناهيات» و«الناعمات»
و«القاتلات» و«المحييات» و«المبديات» و«الغوارب» و«الغرائب» و«الجلابيب»،
وكان ذلك في ستة أبيات، عطفت على «واديك» فقلت:

يا حبذا المتحملون وحبذا وإي لثمتُ به الغزالة كاعبا

لتقول عن نفسك ووجعك، وإن الدنيا أظمتك فاستسقيتها فمطرت
المصائب، ولتنتهي من ذلك إلى حالك التي إذا عَلِمَ بها ممدوحك علي بن
منصور الحاجب، أقبل الزمان عليك «تائباً».

ثم إنه الملك الشجاع الجواد الذي يتبارى فيه سنانة وبنانه، ثم تدخل
عالم معركته فتصف الأرض وزلزالها، والجبال وقد دُكَّتْ إلى آخر هذه الأشبات
مما يسمح به أدب الحرب.

قال أبو الندى:

ويل لأهل اللغة وأصحاب البديع، وما أظنهم إلا حُسَّاداً شَنَاءة.

ذكروا أن «جلايب» هي «جلايب» أليس في ذلك رُخصة؟

وقالوا: «مَطَرَت»، والكثير المشهور أمطرت، أليس هذا مما قيل ويقال، وهل خلا شعر الإسلاميين من هذه النكات؟ غير أني لاحظت في أدب شاعرنا استعماله التفذية الذي وجدته هنا وهناك وقد يكون مثله القسم، قال:

بأبي الشمس الجانحات
وأقسمت فقلت في أخرى:

بما بعينيك من سُقم صلي دَنَفًا
وشيء آخر لم يحضرني الساعة!

قلت:

هذه من لوازم الشعر في عصر أبي محمَّد، وقد سبق لأبي عبادة أن قال:
عذيري فيك من لاح إذا ما دَكُرْتُ الشوق حَرَقني ملاما
فلا وأبيك ما قارفتُ ذنباً ولا قارفتُ في حُبِّيك داما
وكان شعراء الشيعة عامة أحبوا هذا القسم فأكثرُوا منه.

قال أبو الطيب:

ما أسعدني هذه الليلة أن أجالس صاحبي فاسمع منهما كلمات كالشهد
المصْفَى.

و«هذه البائية» قد وجدتم فيها من الأدب ما وجدتم، وهي ليست أكرم
من كرائمي، وهُنْ كثر، كما أشرت أن «شموسي» قد كثرت فيها.

قال أبو الندى:

هل لنا أن نظفر بمديح أبي الطيب لعبد الواحد بن العباس بن أبي
الإصبع الكاتب؟

قلت:

أيها تعني أميمته البارعة أم عينته التي حدتني يوماً عنها؟

قال أبو الندى:

لنبدا الميمية التي بُدئت بنسيب أحسن فيه شاعرنا صنعة، وأفرغ فيه من

حذفه فقال:

نَرَى عِظْماً بِالْبَيْنِ وَالصَّدُّ أَعْظَمُ وَنَتَّهَمُ الْوَاشِينَ وَالْدَمْعَ مِنْهُمْ

ولما التَقَيْنَا وَالنَّوَى وَرَقِيبُنَا غَفُولَانِ عَنَّا ظَلْتُ أَبْكِي وَتَبَسُّمُ
فَلَمْ أَرْ بَدْرًا ضَاحِكًا مِثْلَ وَجْهِهَا وَلَمْ تَرَ قَبْلِي مَيِّتًا يَتَكَلَّمُ
ظَلُومٌ كَمَتْنِيهَا لَصَبٌ كَخَضِرِهَا ضَعِيفُ الْقَوَى مِنْ فَعْلِهَا يَتَظَلَّمُ

فلو كان قلبي خالياً كان دارها ولكن جيش الشوق فيه عرمرم

إلى أن يقول في «تخلص»:

بنفسي الخيال الزائري بعد هَجْعَةٍ وَقَوْلْتُهُ لِي بَعْدَنَا الْغَمَضُ تَطْعَمُ
سَلَامٌ فَلَوْلَا الْخَوْفُ وَالْبَخْلُ عِنْدَهُ لَقُلْتُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا الْمَسْلَمُ
حُبُّ النَّدَى الصَّابِي إِلَى بَذْلِ مَالِهِ صُبُوءًا كَمَا يَصْبُو الْمَحَبُّ الْمَتِيمُ
وَأَقْسِمُ لَوْلَا أَنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ لَهُ ضَيْغَمًا قُلْنَا لَهُ أَنْتَ ضَيْغَمُ

ولا يُبْرَمُ الأمر الذي هو حَالِلٌ وَلَا يُحْلَلُ الأمر الذي هو مُبْرَمٌ

قلت:

لقد أحسنت، لقد نبهتني تلاوتك إلى مسائل أظنك قصدتها.

كانك وقفت في تلاوتك قليلاً على «ظلت»، ونسييت أمرها وقد كنت
عرفته أيام الطلب. هي: «ظلت» بفتح الظاء أو كسرهما، وهي «ظَلَّت» على
الأصل.

إن صاحبنا أبا محسّد يعرف هذا، ويعرف الكثير من هذه الشذرات. وقد كان في منهجنا أن يكون لنا «مجلس» خاص نعرض فيه للغة ونستمع لأبي الطيب في مسائل عدة، ولولا أن المقام اقتضى ذكرها الآن لكان لها في مجلسنا الآتي مكان.

قال أبو الطيب:

لقد قلت قبل قليل: إن القسم من لوازمي، وأنا أقرُّ لك بذلك. وأريد أن أشير إلى قولي:

وأقسمُ لولا أنّ في كل شعرة

قلت:

ولا يفوتني أن أذكر هنا قولك:

فلا يُبرّم الأمرُ الذي هو حَالِلٌ ولا يُحلّلُ الأمرُ الذي هو مُبرّمٌ
وهو البيت الشاهد في كتب أهل البلاغة، وجعلوا البيت داخلاً في مخالفة القياس، وهو شيء لا ترتضيه فصاحة الكلمة العربية.

لا أدري: ما تقول في هذا، أبا محسّد؟

أتريد أن تسخر من أهل البلاغة فتنكر عليهم قولهم، وسخريتك منهم تندرج في سخريتك من الشعراء ومن الناس عامة، ألم تخاطب سيف الدولة بن حمدان فقلت:

بأيّ حقّ تقول الشعر زَغِنْفَةً تجوزُ عندك لا عُربٌ ولا عَجَمٌ
أم تريد أن تقول: إن فكّ الإدغام لغة قومٍ من العرب؟

قال أبو الطيب:

ألا يجوز لي، وأنا الذي لم أترك شاردة ولا واردة من العربية إلا أدركتها، أن أقول لغتي، وأفرضها، وليقل هؤلاء ما يقولون؟

قال أبو الندى:

ما أظن في القصيدة ما يدعو إلى أن نطيل فيها، فقد خلاص أبو محسّد إلى صاحبه يُشيد بسماحته وجوده.

ويحسن بنا أن نتحول إلى العينية في الممدوح نفسه التي مطلعها:
أركائبَ الأحبابِ إنّ الأدْمَعَا تَطِسُ الخُدُودَ كما تَطِسُنَ اليرْمَعَا
قلت:

كأنّك، أبا الندى، أردت أن تقول في «وَطَسَ» وفي اليرْمَعِ: إنها من الغريب، وقد تلقّف أبو الطيب «يَرْمَعَه» هذا ليقيم القافية، وهو الحجارة الرخوة، فاستعار لها «الوَطَسَ» وهو الضرب الشديد.

ولقد مررت على شيء في القصيدة، ولم يكن لك أن تشير إليه، وهو قول أبي محسّد في صنّعه بل في تصنّعه:

نَشَرَتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها في ليلةٍ فأرثَ لياليَ أربعاً
واستقبلتُ قَمَرَ السماءِ بوجهها فأترتني القَمَرَيْنِ في وقتٍ مَعَا
أقول: لو وَجَدْتَ أبا محسّد نظير هذه الصنعة في شعر حبيب بن أوس لأكثرت فيه القول، ولكنك حفيٌّ بكرائمك على كلّ حال.

قال أبو الطيّب:

لك أن تقول: صنعة أو تصنّع، ولغيرك أن يقول ما حلا له أن يقول، وأنا أجلّ شعري وأكرمّه، وما أراني فرطت فيه.

قال أبو الندى:

وهل لي أن أتمّ تلاوتي فأنشد:

رُدِّي الوصالَ سَقَى طلولك عارضي زَجَلٌ يُريكَ الجَوَّ ناراً والملا
لو كانَ وصلُك مثله ما أقشعا كالبحرِ والتَّلعاتِ رَوْضاً مُمرِعا
كَبَنانِ عبدِ الواحدِ الغَدِقِ الذي أروى وأمّن من يشاء وأمرِعا
ألفَ المروءة مُذْ نَشَا فكأنّه سَقَى اللَّبانَ بها صَبِيّاً مُرْضِعا

قلتُ:

أتريد أن تذكرنا بما أشرنا إليه من لوازم أبي الطيب في التفدية والقسم
فتلوت قوله:

ألف المروءة

لتشير إلى الدعاء في قوله: «سُقِيَ اللبن...».

قال أبو الندى:

هو ذاك...

قال أبو الطيب:

وهل لكما في هذا قولٌ عليّ؟

قلتُ:

لا تبتس، أبا محمّد، فخرك كثير، وإحسانك جمّ، وفرائدك شواهد لك
لا عليك.

ولكني أريد أن أسمعك كثرة الصفات والنعوت التي وصفت بها
المدوح، فهل ترى في درجها في بيتين فضلة من إحسان؟

قلتُ:

متكشفاً لعداته من سَطوةٍ أو حَكْ مَنْكِبها السماء لزغزعا
الحازمَ اليقظ الأعزّ العالم الـ فِطْنِ الألدّ الأريحيّ الأروعا
الكاتب اللبق الخطيب الوهاب الـ نُدُسِ اللبيب الهبرزيّ المصقعا
نَفْسُها خُلِقَ الزمانِ لأنّه مُفني النفوسِ مُفرّق ما جَمعا
كأنك أردت أن تختصر مسافة القصيدة فجمعت هذه الصفات الحميدة
وهي كثيرة لا تجتمع في رجل واحد، ولا حاجة أن تُحشَر في بيتين.

قال أبو الندى:

أمن الخير أن نشبه المدوح، وهو معدن الخير والكمال، بـ «خُلِقَ الزمان»

ولو كان هناك وجهٌ للشبه؟

ثم ألنا أن نتلو اللامية «الخفيفة» في مدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي ومطلعها:

صِلَةُ الهجر لي وهَجْرُ الوصالِ نَكْسَانِي فِي السُّقْمِ تُكْسِ الهلالِ
قلتُ:

ذلك ما ترى. وعندي فيها وقفات هي أَنَّ أبا محمَّد قد أوجز «مقدمته» ليصل إلى نفسه يسط من آلامها ويفتخر في حماسه المحببة فيقول:

لا تلمني فإنني أعشَقُ العُشْدَ اقي فيها يا أعدَلُ العُدَالِ
ما تريد النوى من الحَيَّةِ الذَّوِّ اقي حرَّ الفَلا وَبَرْدَ الظُّلالِ
فهو أمضى في الرُّوعِ من مَلَكِ الموتِ وأسرَى في ظُلْمَةٍ من خيالِ
ولِحْتَفٍ في العزِّ يدنو محبُّ ولعُمُرٍ يطول في الذلِّ قالِ
قال أبو الندى:

وأين أنت من قول أبي محمَّد:

نحن رَكْبٌ مِلْجِنٌ في زِيٍّ ناسٍ فوق طَيرٍ لها شُخوصُ الجمالِ
من بنات الجدِيلِ تمشي بنا في الـ جِيدِ مَشْيِ الأيامِ في الأَجالِ
وقوله: «مِلْجِنٌ» أي من الجنِّ، وهذا معروف في شعر المتقدمين، وقوله: «فوق طير» أي فوق ركائب كالطير في سرعتها، ثم عرَّف بها فقال: من بنات الجدِيلِ، وبنات الجدِيلِ من مواد أدبنا القديم.
قلتُ:

أحسنت أبا الندى في إشارتك هذه، فهي في سير شاعرنا إلى مدوحه فقال:

عامداتٍ للبدرِ والبحرِ والضَّرِّ غامِةِ ابنِ البَارِكِ المفضالِ
قال أبو الندى:

وأين نحن من همزيتة في مدح أبي علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي
الكاتب التي مطلعها:

أَمِنْ ازْدِيَارِكَ فِي الدَجَى الرِّقْبَاءُ إِذْ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ
ثم خمسة أبيات، يغادرها أبو الطيب قائلاً:
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحت وإذا نطقتُ فإني الجوزاء
قال أبو الطيب:

كأنني فطنت إلى وقفتك على عجز المطلع فلم بين لك الوجه أول مرة،
ولكنني واثق من فهمك للأساليب وسير العربية فيها، وما يكون من النحو
الحسن الذي يتعد عن فساد التركيب.

قلت:

ألم أقل لك، أبا الندى، إن أبا محمّد من رجال العربية، وإلى هذا أشار
أهل الأدب، وحسبك أن يرتضيه أبو الفتح ابن جني، وهو من هو في العربية.
لقد وصلت، أبا الطيب، إلى ممدوحك فاجتزت «عقاب لبنان» وثلوجها
فقلت:

وَعِقَابُ لَبْنَانٍ وَكَيْفَ بَقِطْعُهَا وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ
لَيْسَ الثَّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي فَكَأَنَّهَا بَبِيَاضُهَا سَوْدَاءُ
ثم تصل إلى المديح فتشير إلى علمه وجوده.

ولقد وقفت طويلاً على بيتك الأخير الذي تضمن فوائد لغوية ودلالية،
وهو:

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ عَقِمْتُ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءُ
قال أبو الندى:

ولأبي الطيب في ممدوح مشهور صاحب مقام هو بدر بن عمّار قصائد
عدّة، ولا بد أن نفيد منها.

وبدر بن عَمَّار قائد تولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٨، فماذا يقول فيه أبو الطيب، ولم يتأت كعاداته إلى مدحه بشيء من النسب، بل قال:

أَحْلَمَ نَرَى أَم زَمَاناً جَدِيداً أَم الْخَلْقَ فِي شَخْصٍ حَيٍّ أَعِيداً
.....
رَأَيْنَا بَبْدِرَ وَأَبَائِهِ لَبْدِرَ وَلُوداً وَبَدْرًا وَلِيداً
ثم لا بد أن يشير إلى شجاعته وحسن بلائه في الحرب، وإلى جوده وكرمه.

وهو القائل فيه من قصيدة أخرى:

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةً يَا لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلَ
قال أبو الطيب:

أليس لك أن تتلو قصيدي اللامية فيه، وقد خرج إلى أسد فهرب الأسد منه، وكان قد خرج قبله إلى أسد آخر فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وثقل فوثب إلى كَفَلٍ فرسي فأعجلني عن استلال سيفي فضربته بالسوط ودار به الجيش.

قلت:

لا تتعجل، أبا الطيب، فلنا في لاميتك الأخرى فوائد، وهي في قصيدتك التي مطلعها:

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زَمُوا لا الجمالا
ولترك أبياتاً ثمانية من نسيك لنصل إلى قولك:

بَدَتْ قَمَرًا وَمَالَتْ خَوْطَ بَانٍ وَفَاحَتْ عَنبراً وَرَزَّتْ غَزَالاً
وجارت في الحكومة ثم أَبَدَتْ لنا من حُسن قامتها اعتدالاً

لأقول: إن هذه الصنعة ليست من طبعك، فهلا كان لك عدول عنها؟

قال أبو الطيب:

لك أن تقول ذلك، ولكن الحسن لا يتاح لصاحبه في كل حين، والشعر صناعة صعبة لا يقوى عليها إلا الأديب المتفنن العالم الذكي، وأنى هذا في كل حين؟

قلتُ:

عرفتُ مواضع الكلم فأحسنَت وضعه وأجَدَت القول.
وبدر بن عمار قائد شجاع ورث خصاله من آبائه فيحق لك، وأنت محسن، أن تقول فيه:

فيا ابنَ الطاعنين بكل لَدْنٍ مواضع يشتكي البطلُ السُعالا
ويا ابنَ الضاربين بكل عَضْبٍ من العَرَبِ الأسافلِ والقلالا
ومن عجائبك أنك تنطلق بالقول الصائب وما يكون مما يُتمثل فيه، وأنت في معرض المدح وتعداد محامد المدوح، ألم تقل بعد قولك:

أرى المتشاعرين غرّوا بذمي ومن ذا يحمّد الداء العضالا
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يحمّدُ مُرّاً به الماء الزلّالا

قال أبو الندى:

لنعد إلى ما رغب فيه أبو الطيب فنرى وصفه للأسد وكيف صنع المدوح مع هذا الوحش. ولنَدْعُ ما كان من مدحه فقد عرفنا ذلك في الذي تقدّم من الكلام، قلت:

أمعقّر الليث الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولا

إلى أن قلت:

مُتَخَضِّبٌ بدم الفوارس لابسٌ في غيله من لبْدَتِيهِ غيلا
ما قوبلت عيناه إلا طُنَّتَا تحت الدجى نارَ الفريق حُلولا
يَطأُ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آسٍ يُجسُّ عليلا

وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوجِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلًا
 وَتَظُنُّهُ تَمَّا يُزَجِّجُ نَفْسَهُ عَنْهَا لَشِدَّةَ غَيْظِهِ مَشْغُولًا
 قَصَّرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَا فَكَأَنَّهَا رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولًا
 الْقَى فَرِيستَهُ وَبَرَّتْ دُونَهَا وَقَرَّبَتْ قُرْبًا خَالَهُ تَطْفِيلًا
 فَتَشَابَهَ الْخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ وَتَخَالَفَا فِي بَذْلِكَ الْمَأْكُولَا
 أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كَلِيهًا مَتْنًا أَزَلُّ وَسَاعِدًا مَفْتُولًا
 قلت:

أَحْسَنْتَ، أبا الندى، لقد أومأت إلى أن صاحبنا أبا الطيب أحسن القول
 فجعل القصيدة هيكلًا فنيًا يشتمل على أجزاء ينظر أحدهما إلى الآخر، بل
 يكمله، فالمديح محتاج إلى هذه السعة من الوصف الصائب.

وأنت أخي، أبا الطيب، تصدق بمدوحك إن أعطاك من الكمال ما
 يستحق الصدق، غير إن إعجابك قد يشطح بك فتقول ما يشبه الكفر، ألا
 تراك قلت في آخر قصيدتك:

لو كان علمك بالإله مقسمًا في الناس ما بعث الإله رسولا
 لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ فُرقانَ والتوراة والإنجيلا
 أترى أنك قد فرطت؟

قال أبو الندى:

كان بدر بن عمار أحد الصفوة الذين خصَّهم أبو الطيب بجملته من
 قصائده، وكان أثيراً لديه، ولا بد أن تثير هذه الصلة الحميمة حسد أولئك
 الذين يتصلون ببدر بن عمار، وهم كثر. وهذا يدفعني إلى أن أتلو من شعره
 نونيته في «بدر» وقد سار إلى الساحل، ولم يسر أبو الطيب معه. وقد بلغه أن
 ابن كرويس الأعور قد كتب إلى بدر يقول له: إن أبا الطيب إنما تخلف عنك
 رغبةً بنفسه عن المسير معك. ولما عاد بدر إلى طبرية ضربت له قباب عليها
 أمثلة تصاوير، فقال أبو الطيب:

الحب ما منع الكلامَ الألسنا والدُّشكوى عاشقٍ ما أعلنَّا

قلت:

أَحَسَّنْتَ، أبا الندى، لقد اخترتَ هذه «الخريدة» فأحسنْتَ الاختيار.
وقد أحسنْتَ أبا الطيب في عدّة أبياتك في النسيب، ووصلت منها المديح خير
وصول، فلم تُخَرِّج بما تفرضه عليك القوافي. لقد غلبتَ فجريتَ في يُسر
وساحة فقلتَ:

أنكرتُ طارقةَ الحوادثِ مرّةً ثم اعترفتُ بها فصارت دَيْدَنًا
وقطعتُ في الدنيا الفلا وركائبي فيها ووقَّيْتُ الضُّحَى والمُوهِبَا
فوقفتُ منها حيث أوقَفَنِي الندى وبلغتُ من بدر بن عَمَّارِ المُنَى
لأبي الحسين جَدًّا يَضِيقُ وعَاؤُه عنه ولو كان الوعاءُ الأزمنَا
وتمضي أبا الطيب في مدحه فتذكر شجاعته وبعضاً من خلاله، وربما
تجاوزتَ فيها الحدود.

قال أبو الطيب:

كانك تومئ إلى قولي:

تتقاصر الأفهامُ عن إدراكه مثل الذي الأفلاكُ فيه والدُّنَا
ولا أدعكما تقولان فيّ الأقاويل، وتحسبا أني مع الممدوح أنسى ما اتفق
عليه أهل العقل من المسائل.

قال أبو الندى:

أردت أبا الطيّب أن تقطع علينا الطريق، وتصرفنا عن رَبط هذا البيت
بجملة من أقوالك كانت جحداً وإنكاراً بل كفراً.

قلت:

اضرب صفحاً عن هذا الذي خضنا فيه، وارجع إلى تلاوتك، وإني
لأذكر أن القصيدة اشتملت على سعة في حَيَزِ المديح، ألم يقل شاعرنا الكبير:
لما قفلت من السواحل نحونا قَفَلْتُ إليها وحشةً من عندنا
وأقرّ أن هذا من تمام الترحيب الذي كان الممدوح قد أذهب عن الشاعر

الوحشة فكانت إلى «الساحل» الذي غادره الممدوح وقد كَانَ ذلك فسحة لأبي الطيب وَجَدَ فيها ما يقوله في ممدوحه :

أَرَجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَرْتُ بِمَوْضِعٍ إِلَّا أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوِطْنَا
لَوْ تَعَقَّلُ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلَتْهَا مَدَّتْ مُحِيَّةً إِلَيْكَ الْأَغْصَانَا
سَلَكْتُ تَمَائِيلَ الْقَبَابِ الْجَنُّ مِنْ شَوْقٍ بِهَا فَأَذَرَنَ فِيكَ الْأَعْيُنَا
لقد وجدت أبا الطيب في الطريق، وفي القباب التي ضربت وعليها تمائيل
الجنّ مادة تشيد فيها بالممدوح فأجدت القول وأحسن الصنعة. ثم عدت إلى
وصف «الجياد» التي أقبلت «تَحُبُّ بِالْحَلَقِ الْمَضَاعَفَ وَالْقَنَا».

قال أبو الندى:

لا أقول فأتك، شيخي، أن تعرض لقول شاعرنا معذراً:

أَضْحَى فِرَاقُكَ لِي عَلَيْهِ عَقُوبَةٌ لَيْسَ الَّذِي قَاسَيْتُ مِنْهُ هَيِّنَا
فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَاحِبِي مِنْ بَعْدِهَا لَتَخْصُنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا
قال أبو الطيب:

ويلك، أبا الندى، أردت أن تقول: لقد طلبت ندى ممدوحك وأن
يخصك به، ولا يشرك به غيرك. وفاتكما أي نبهت ابن عمار ليكون حذراً من
قالة السوء، وأريد بهم ابن كَرُوس الذي سعى بيني وبين الممدوح، وذلك في
قولي:

وَأَنَّهُ الْمَشِيرَ عَلَيْكَ فِي بَضَلَةٍ فَالْحُرُّ مُتَمَحِّنٌ بِأَوْلَادِ الزَّوْنِ
وَإِذَا الْفَتَى طَرَحَ الْكَلَامَ مُعَرَّضاً فِي مَجْلَسٍ أَخَذَ الْكَلَامَ اللَّذَّ عَنِّي
وَمَكَايِدُ السُّفَهَاءِ وَاقَعَتْ بِهِمْ وَعَدَاوَةُ الشُّعْرَاءِ بِشِ الْمَقْتَنِيِّ
لُعِنْتُ مَقَارَنَةَ اللَّثِيمِ فَإِنَّمَا ضَيْفٌ يَجِرُّ مِنَ النَّدَامَةِ ضَيْفُنَا

قلت:

عرفت فيها ما كان في نفسك من مرارة أن أحسست «بمكايد السفهاء»
التي جلبت عليهم «عداوة الشعراء»، كما عرفت ذلك «الضيفن» اللثيم....

قال أبو الندى:

ما أظن أننا أبقينا شيئاً في هذه «الخريدة»، وإذا كان ذلك فهل لنا أن
نتقل إلى ميمية محجلة هي على كل لسان في عصرنا، يرددها بُلغاء الكتاب كما
يرردها الصبية في «الكتاب».

قلت:

أظنك تعني التي في مدح أبي الحسين علي بن أحمد المرّي الخراساني، وكان
بينها مودة بطرية، ومطلعها:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مُدرك أو محارب لا ينام

قال أبو الندى:

هي تلك التي كان فيها أبو الطيب منصرفاً إلى نفسه يرسل القول المأثور
الذي أدرجه بعضهم مدرج الحكمة، وصنّفوا في ذلك مصنفاتهم، قال - لا فُضّ
فوه - :

ليس عَزْماً ما مَرَضَ المرء فيه ليس همّاً ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غِذاء تَضَوَّى به الأجسام
ذلٌّ من يَغْبِطُ الذليل بعيشٍ رَبٌّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ
كلُّ جَلْمٍ أقى بغير اقتدارٍ حُجَّةٌ لاجيءٍ إليها اللئامُ
مَنْ يَهْنُ يَسْهُلُ الهوانُ عليه ما الجُرحُ بميتٍ إيلاَمُ

وليس هذا ما ينبغي أن نقف عليه في هذا الشطر من القصيدة فقد جاء
فيها شيء آخر.

قلت:

نعم، لقد جاء فيها شيء آخر هو أن أبا الطيب نظر إلى نفسه فقال في
حماسته المعروفة.

ضاق ذرعاً بأن أضيق به دُرٌّ عاً زماني واستكرمّني الكِرامُ
واقفاً تحت أخصى قدّر نفسي واقفاً تحت أخصى الأنامُ

أَقْرَاراً أَلَدُ فَوْقَ شَرَارٍ وَمَرَاماً أَبْغَى وَظَلَمِي يُرَامُ
أُتْرَى كَيْفَ ذَهَبَ أَبُو الطَّيِّبِ إِلَى مَمْدُوحِهِ، لَقَدْ ذَهَبَ بِئْسَ وَحْذَقَ صِنْعُهُ
وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

دُونَ أَنْ يَشْرُقَ الْحَجَازُ وَنَجْدُ الْعِرَاقَانِ بِالقَنَا وَالشَّامِ
شَرَقَ الْجَوُّ بِالْغُبَارِ إِذَا سَا رَ عَلِيٌّ بْنُ أَحْمَدَ الْقَمَقَامِ
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى نَعْتِهِ بِالنُّعُوتِ السَّامِيَةِ فَقَالَ:

الْأَدِيبُ الْمَهْدَبُ الْأَصِيدُ الضَّرْبُ الذِّكْيُ الْجَعْدُ السَّرِيُّ الْهُمَامُ
وَالَّذِي رَيْبَ دَهْرِهِ مِنْ أَسَارَا هُ، وَمِنْ حَاسِدِي يَدْيِهِ الْعَمَامُ
ثُمَّ انْبَرَى فِي مَدِيحِهِ وَوَصَفِهِ بِالشَّجَاعَةِ فِي الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ الشَّجَاعَةُ،
وَهُوَ يَصِلُ إِلَى هَذَا الْوَصْفِ بِطَرَائِقِهِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي يَسْلُكُهَا فَهُوَ يَقُولُ:

خَيْرَ أَعْضَائِنَا الرُّؤُوسَ وَلَكِنْ فَضَّلْتُهَا بِقَصْدِكَ الْأَقْدَامُ
قَالَ أَبُو النَّدَى:

وَلَمْ يَلَمْ نَمُضْ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ لَتَرَى شَاعِرُنَا الْمَفْلُوقَ قَائِلاً:
قَدْ لَعِمَرِي أَقْصَرْتُ عَنْكَ وَلِلْوَفِّ إِذْ أَزْدَحَامُ وَلِلْعَطَايَا أَزْدَحَامُ
خِفْتُ إِنْ صِرْتُ فِي يَمِينِكَ أَنْ تَأْ خُذَنِي فِي هِبَاتِكَ الْأَقْوَامُ
وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ
قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

مَا تَفْتَأُ، أَبَا النَّدَى، تَغْمِزُ وَتَلْمِزُ، وَكَأَنَّكَ وَقَدْ أَشْرْتَ إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ
أَرَدْتُ أَنْ تَقُولَ: أَيْنَ هَذَا الْمَدِيحِ وَطَلَبِكَ إِلَى الْمَمْدُوحِ أَنْ يَتَذَكَّرَ سَيِّئِهِ الَّذِي
تَأَخَّرَ، مِنْ فَخْرِكَ بِنَفْسِكَ الَّذِي سَمِعْنَاهُ؟

قَالَ أَبُو النَّدَى:

لَمْ أَرِدْ هَذَا، وَكَأَنَّهُ مِمَّا يَحِيكُ فِي نَفْسِكَ فَتَظُنُّ أَنَّ «الْأَنَامَ» الَّذِينَ تَحْتَ
«أَحْصَيْكَ» يَذْهَبُونَ إِلَى هَذَا.

قلت:

على رسلِكهما ولا يذهبن أحَدُكما في سِرِّبِ صاحبه، فنحن إخوة كرام،
وصاحب مجلسنا من حقه أن قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَنْ به صَمَمُ
ثم أقول: هل لي أن أفيد من سماحتك فأسألك كيف ختمت حديثك عن
السَّيب والعطاء بقولك:

إنَّ بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضه أحكامُ
منه ما يجلب البراعة والفَضْلُ ومنه ما يجلب الإِسْـمَامُ
ما علاقتهما بالحديث عن السَّيب والعطاء؟

ذلك ما لم يتَّجه لي فيه شيء.

قال أبو الطيب:

لا يعرف البأس إلاَّ أهله، ولو أنكم أُوتِيتُمْ هذا الشقاء الذي تدعونه
شعراً، لكان لكم غير هذا الذي تخوضون فيه ممَّا تدعونه «نقداً».

المجلس الخامس

قال أبو الندى:

ما كنت أظنّ أن سأقوى على المضي إلى مجلسنا هذا، فقد طال بنا مجلس
الأمس، وقد أخذ علينا فنّ أبي الطيب، فرحنا فيه معجبين، وإن كان أبو
الطيب قد سثم بما كنّا فيه، وربما حسبه نقداً لاذعاً.

قلت:

لم يكن أبو الطيب ضيقَ العَظَن، وهو يدرك ما نحن فيه، وربما كان له
أكثر مما عندنا، أنسيت كيف قال في آخر ميميته التي كانت آخر ما شقينا من
أمرها:

إن بعضاً من القريض هُراء ليس شيئاً وبعضه أحكامٌ
فلا تبتس بما كان منّا أمس، ودع عنك ذاك، وأتل علينا نبأ النونيّة
المشهورة التي بدأها بحديثه عن الناس، فذهب في تعنيفهم ولومهم، ثم خلص
إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الخطيب الخصيبي، وهو يومئذ يتقلد
القضاء بأنطاكية.

قال أبو الطيب:

كانكما لا ترضيان بما كان لي من الشنأة الحساد...

قال أبو الندى:

كنت أود أن أتلو النونيّة التي كان لأبي الطيب فيها كلام حادّ في الناس،
لولا أن شيخي قد أشار إلى أن هذه المسألة تستحق مجلساً خاصاً.

ولكن لا بد لي أن أقول: إن أبا الطيب في أي حيز يدخل فيه في أبواب
القريض لا بد أن يرسل القول المأثور الذي يسير مثلاً، ومن ذلك قوله:
لا يُعْجِبُنْ مَضِيماً حُسْنُ بَزَّتِهِ وهل تروق دفيناً جُودَةُ الْكَفَنِ
وحديثه في الناس وفي نفسه لا يترك له سعة يتحول فيها إلى ممدوحه
الخصيبي فيضفي عليه الصفات الحميدة تتجلى في سماحته وحكمته.
قلت:

فأين أنت عن ميميته في رثاء جدته، أترى شاعرنا قد أجاد الرثاء، وماذا
يقول شاعرنا لو أنني ذهبت مع الذاهبين إلى القول: إن أبا الطيب قد شغل
بنفسه، فلا ينال أحد منه بقدر ما تحظى منه نفسه؟
قال أبو الطيب:

ما زلتما تومئان إلى قولي في هذه القصيدة:
ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباك الضخم كؤنك لي أمّا
لئن لُدَّ يومُ الشامتين بيومها لقد وَلَدْتُ مَنَ لأنفسهم رَغماً
قلت:

كيف لك أن تنكر، أبا الطيب، ما ذهبت إليه، وقولك يثبت هذا الذي
رآه فيك غيرك:
تَغَرَّبَ لا مستعظماً غيرَ نفسه ولا قابلاً إلا لخالفه حُكماً
قال أبو الندى:

ولكني لم أتل شيئاً من الرثاء الذي يشير إلى صدق في التأثر وحرارة في
القول وذلك في قول أبي الطيب:

لِكِ اللُّهُ من مَفْجُوعَةٍ بحبيها قَتِيلَةٌ شَوْقٍ غيرِ مُلِحِّقِها وَضْمًا
أَجْنُ إلى الكأس التي شربت بها وأهْوَى لمشواها الترابَ وما ضَمًّا

ولو قتل الهجرُ المحبين كلَّهم مَضَى بلدٌ باقي أجدتُ له صرماً

أناها كتابي بعد يأسٍ وترَّحةٍ فماتت سروراً بي فميتُ بها غمّاً

وليس غريباً أن يأسَى أبو الطيب هذا الأسى بعد أن ورد عليه كتاب من جدَّته تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها، فتوجَّه نحو العراق، ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر إلى بغداد. وكانت جدُّته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه فقَبِلَتْ كتابه، وحمَّت لوقتها سروراً به، وغلب الفرح على قلبها فقتلها.

قلت:

فاتك، أبا الندى، أن تشير إلى ما اشتملت عليه هذه المحجَّلة من فن بديع فخرأ وحماسة، وما كان يبرز بل يتلألأ في أثنائه من كلمات عذبة هي القول الماثور الذي حفظه أهل الأدب ورددوه، وهو قول أبي الطيب:

تغرَّبَ لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالفه حُكماً
ولا سالكاً إلا فؤادَ عجاجةٍ ولا واجداً إلا لمكرمةٍ طعماً
يقولون لي ما أنت في كل بلدةٍ وما تبتغي؟ ما أبتغي جُلَّ أن يُسمَى

وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجدَّ والفهما
قال أبو الندى:

وفاتني أيضاً أن أتلو الأبيات الأخيرة التي استعظمها الناس عليه وهي:

وإني لمن قومٍ كأنَّ نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئتِ فاذهبي ويا نفسُ زيدي في كرائيها قُدماً
فلا عَبَرْتُ بي ساعةً لا تُعزِّي ولا صَحِبْتُني مُهْجَةً تقبلُ الظلماً

قال أبو الطيب:

إني لأحسبك، أبا الندى، من صَحْبِي الأغْلِيَن، فكيف لك أن تنال مني فتشايع
السَّنة الحُسَّاد الذين تَقُولُوا في قولي:

وإني لمن قومٍ كأنَّ نفوسَهُم بها أنْفُ أن تسكنَ اللحم والعظما
لقد أدخرتكما عوناً لي فكيف يكون ذلك؟

قلت:

لا عليك، أبا الطيب، ونحن معك، والذي يبدو لنا في شعرك هو
العسل المصفى والسلسل العذب والآلئ الحسن.

قال أبو الندى:

وهل لي أن أتلو لامية أبي الطيب في مدح القاضي أبي الفضل أحمد بن
عبد الله بن الحسين الأنطاكي.

قلت:

ولم لا، فصاحبنا قد خلص لهذه الصفوة التي عرفتها بلاد الشام،
و«انطاكية» هذه تتردد في شعره، وقد عرفنا غير واحد من الأنطاكيين من
مدوحي شاعرنا.

وقد جرى في مدحه على نحو ما كان له في قصائد عدة. لقد بدأها كعادته
بنبذة من النسب. ثم خلص إلى الممدوح، فكان هذا الكريم المعطاء الذي
كانت طرق أبي الطيب إليه «معمورة» بجوده، وهو «علامة العلماء» و«اللجّ» الذي
لا ينتهي»....

ولكني لم أرض بناء بيت في هذا المديح، ولم يكن عدم رضاي متأثراً بما
قال فيه أهل اللسن والبلاغة، وهو:

جَفَخْتُ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم شيمٌ على الحَسْبِ الأَعْرُ دلائل
«فالشيم قد فخرت بهم، وهم لا يفخرون بها، وهي دلائل على حَسَبه
«الأعر» قال أهل اللسن، وهل من حاجة تدعو إلى الفعل «جفخ»، ولو استبدل
به الفعل «فخر» أو نحوه لتحقيق الغرض، ثم ما هذا التعقيد في البناء «بها
بهم»؟

لا أدري ما يقول أبو الطيب؟

قال أبو الطيب:

صحيح أن البناء لم يخل من التعقيد، ولكن هذا لغة الشعر، ومنه لدى
الفحول من شعراء العربية الكثير، ألم يقل الفرزدق:

وكلُّ رَفِيقِي كُلِّ رَحْلٍ وَإِنْ هُمَا تَعَاطَى الْقَنَا قَوْمَاهُمَا أَخَوَانِ

ثم أليس لي أن أجتلب شيئاً من الغريب وأمنحه الحياة؟

قال أبو الندى:

وكأنك، أبا الطيب، قد حذرتَ مدحوك مما تشكو منه من خُلُقِ الناس
وحسدِهم فمضيت قائلاً:

يَا أَفْخَرُ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ مَسْتَعِظُمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ

ثم جَرَيْتَ كدأبك تقابل صنعتك في المديح بأخرى تفخر فيها بنفسك،
«فأنت الهزبر الباسل»، وهذا مما رُدِّدته في فخرك غير مرة، فأنت الشجاع الذي
عرفته الليالي، وتَجَسَّم الشُّرى فيها وقابل أعداءه واشتجرت فوقه السهام فقلت:

وصرتُ إذا أصابني سهام تكسرت النصال على النصال

ولكنك زدت في فخرك فتذكَّرتَ أنك شاعر العربية طوال العصور

فقلت:

مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ شِعْرِي وَلَا سَمِعَتْ بِشِعْرِي بِأَبْلِ

وحذرتَ الممدوح بقولك الذي رده بعدك الناس الذين ما أحسنت إليهم

فقلت:

وَإِذَا أَتَيْتَ مَذْمُومِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
مَنْ لِي بِهِمْ أَهْلٌ غَضِرَ يَدْعِي أَنْ يَحْسِبَ الْهِنْدِيُّ فِيهِمْ بِأَقْلُ

قلت:

هل لك، أبا الندى، أن نتحول عما نحن فيه إلى شيء آخر من هذا
الباب الواسع الذي حُبِسَ على المديح، ولنعرض لقوله في «أنطاكيا» آخر هو أبو

سهيل سعيد بن عبيد الله بن الحسن، وأظن ذلك في نونية لم تنل من الحفاوة ما نالته جياذ أبي الطيب، تلك التي مطلعها:

قد علّمَ البينُ منا البينَ أجفانا تَدْمَى وألّفَ في ذا القلب أحزانا
قال أبو الندى:

وأيّ شيءٍ فيها وغيرها مما عرضنا له أو سنعرض يغني عنها. وإذا كان ذلك فهل أعود لتائيّة كنا قد جئنا على بيت منها في مجلس سابق، ونحن نذكر ما شطح به أبو الطيب. تلك التي مدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران التي مطلعها:
سِرْبٌ محاسنه حُرِمَتْ ذواتها داني الصفات بعيدُ موصوفاتها
قلت:

ذاك حسن، ودع ما كان فيها من شطحاته وعُدْ إلى قوله الذي ذكرناه من محاسنه، وكان بعض ما اصطلاح عليه أهل البلاغة وأدرجوه في باب «التشبيه الضمني» وهو:

كَرَمٌ تبين في صفاتك مائلاً وَيَبِينُ عِنْتُ الخيل من أصواتها

وأبو الطيب شاعر أتقن صناعته، فهو يتخذ من كل مسألة في الممدوح، أو تعرض له كالحُمى وسيلة ينفذ منها إلى سعة في القول، وهو يقول:

لا نَعْدُلُ الْمَرَضَ الذي بك شائق أنت الرجال وشائق عِلّاتها
فإذا نَوَتْ سَفَرًا إليك سَبَقَتْها فأَضَفَتْ قبل مُضَافها حالاتها
ومنازلُ الحُمى الجسومُ فقل لنا ما عَذَرُها في تركها خيراتها
أعجَبَتْها شَرَفًا فطال وقوفُها لتأصّل الأعضاء لا لأذاتها

.....
حقّ الكواكب أن تعودك من علٍ وتعودك الأسد من غاباتنا
والجن من سُتْراتها والوحش من فُلواتها والطيور من وُكناتنا
ذَكَرَ الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتنا

قال أبو الندى:

لقد أحسنت ووفيت بما كان لك أن تدركه، ولكن قل لي: هل كان من أدوات المديح أن تستعير لها مصطلحات النحو والصرف فتقول: «فأضفت قبل مضافها حالاتها» فجئت بالمضاف والحال؟ وقد أفادني في ذلك شيخي، وذكرني بما كان منه في قصيدة من «سيفياتك» التي قلت فيها:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مَضَى قبل أن تُلْقَى عليه الجوازُ
قلت:

فأين أنت، أبا الندى، عن رائية شهيرة كنا قد عرضنا لها فكأننا خبطنا في معركة حامية الوطيس، شهدنا من طعن أبي الطيب وشجاعته وإقدامه ما حملنا على عدّ القصيدة من فخره وحماسه وليس المديح فيها إلا تنمة، وممدوحه أنطاكي آخر هو علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي.

كأنك، أبا الطيب، قد استشاط فيك سُعار من غضب فدخلت حومة قصيدتك تجمع لها أفراد أدواتك في الطعن والحزم والإقدام فقلت:

أطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبرُ
وأشجعُ مني كل يومٍ سلامتي وما ثبتتُ إلا وفي نفسها أمرُ
تَمَرَّستُ بالآفاتِ حتى تركتها تقول أَمَاتِ المَوْتُ أم دُعِرَ الذُّعْرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ كأنَّ لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وترُ
ذَرِ النفسَ تأخذُ وُسْعَهَا قبلَ بَيْنِهَا فمفترق جارانِ دارُهُما العُمُرُ
ولا تَحْسَبَنَّ المجدَّ زَقاً وقينةً فما المجدُّ إلا السيفُ والفتكة البكرُ
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى لك الهَبَواتُ السودُ والعسكرُ المجرُ
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تداولَ سمعَ المرءِ أَمَلَهُ العَشْرُ

قال أبو الطيب:

كأنك سعدت بهذه القصيدة فأضفت في ذكرها.

وأنا أقرُّك على ما ذهبت إليه من أن الفخر والحماسة هي غرضي الأول.

قال أبو الندى:

ليس في هذا شك، فقد جعلت من المجد «تضريب أعناق الملوك» فأي شيء تركت للمدوح، أأبعدت صاحبك عن الملوك، وأنت قد منحت هذا اللقب إلى مدوحين غيره لم يكونوا ملوكاً، ألم تقل لكافور:

تَرَعَرَعَ الملك الأستاذ مكتهلاً قبل اكتهالِ أديباً قبل تأديبٍ
وقد كان من إحسانك في القصيدة إرسالك الكلم النوابع التي صارت مما يستشهد به كقولك:

ومن يُنفق الساعات في جمع ماله خافةً فقراً فالذي فعلَ الفقراً
ثم سلكت إلى المدوح طريقاً جعلته ميدانَ حاستك وفخرك إلى أن قلت:

وغيثٍ ظَنَّنَا تحته أن عامراً علا لم يث أو في السحاب له قَبْرُ
أو ابنُ ابنه الباقي عليّ بن أحمدٍ يحدّ به لو لم أحز ويدي صَفْرُ
قلت:

هل لك في بائية شاعرنا في عليّ بن محمد بن سيّار بن مكرم التميمي التي مطلعها:

ضروبُ الناس عشاقُ ضروباً فأعذرهم أشقُّهم حبيباً
قال أبو الندى:

ليس فيها شيء، ونظائرها كثير، ولنتجاوزها إلى أخرى نشقق فيها القول فتبدو لنا فوائد من ذلك. ولتكن داليتّه في المدوح نفسه التي مطلعها:

أقلُّ فعالي بَلَهْ أكثره تجدُّ وذا الجدُّ فيه نلتُ أم لم أنل جدُّ
سأطلبُ حقّي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طول ما التّموا مُرد
قلت:

على مهلك، أبا الندى، إذا كان هذا هو الذي يطلب أبو الطيّب ويسعى

إليه، فما بقي للمدوحه؟

وقد أحب أبو الطيب شعره حتى جعله من مواده المفضلة، وحتى شجع
النقاد بل الحساد أن يقولوا فيه فيقولوا على لسانه أنه ادعى النبوة فطلب إليه أن
يأتي بمعجزة لأن لكل نبيٍّ معجزة فقال: دونكموها في قولي:

ومن نكّد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ
وقد ذهب قوم إلى أن الذي يطلبه من حقه هو الخلافة التي كان آل عليّ
قد جعلوها حقهم المسلوب.

قال أبو الندى:

وعجيب أنك في شعر أبي الطيب تلقى فيه شواهد البلاغة والعربية فقد
وقفت على أقواله مع الشداة فاستظهرنا شواهد البلاغة، ومنها قوله:
فلم أر قبلي من مَشَى البحرُ نحوه ولا رجلاً قامت تعانقه الأسدُ
قلت:

وأنت لا بد لك أن تدرج أبا الطيب مع النقاد العلماء في العربية، فهو
من أهل المعرفة بالشعر، ومن أجل ذلك يعرّض بساقه المتشاعرين أصحاب
النظم فيقول:

ومن الناس من تجوز عليهم شعراء كأنها الخازباز
والخازباز صوت الذباب ثم غلب على الذباب.

ویرى أنه البصيرُ بهذا وهو في العُمى ضائع العُكّاز
وهذان البيتان من قصيدة في مدح أبي بكر علي بن صالح الروذباري
الكاتب. وهو القائل:

وأصبح شعري منها في مكانه وفي عُنق الحساء يُستَحْسَنُ العِقْدُ
والإشارة إلى علي وابنه الممدوح الحسين بن علي الهمداني.

قال أبو الندى:

ولاني لألمح في بعض شعره إعراباً عن حقه وانتفاءً إلى أهله وقومه، وكأنه
من ذؤابة الأسرة العلوية.

قال أبو الطيب:

كأنك تشير إلى قولي في مدح أبي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر
العلوي:

كذا الفاطميون الندى في بنانهم أعزُّ اتحاء من خطوط الرواجب
أناس إذا لاقوا عدى فكأنما سلاح الذي لاقوا غبار السلاهب

.....
إذا علوي لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلا حجة للنواصب
قلت:

صدقت، أبا الطيب، لقد حسن ظنّ أبي الندى فيك، وعندي أن
«النواصب» من الكلم الشيعي ينزون به من ناوأهم، وسلب حق آل بيت
عليّ. وإلى هذا يشير أبو الطيب بقوله:

هو ابنُ رسول الله وابنُ وصيّهِ وشبهُهُما شَبَّهْتُ بعد التجارب
قال أبو الندى:

عرضنا غير مرة لكلم أبي الطيب الماثور الذي ردّده أهل الأدب واشتملت
عليه مظانهم، وهو يرسله متخذاً المناسبة الطارئة مجالاً للقول، فقال وقد كُيِّسَتْ
أنطاكية وهو فيها فقتل الطخور وأمه:

إذا غامرت في شرفٍ مَرومٍ فلا تقنّع بما دون النجوم
فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموتِ في أمرٍ عظيمٍ

.....
.....
يرى الجبناء أن العجزَ عقلٌ وتلك خديعة الطبع اللثيم
وكلُّ شجاعةٍ في المرء تغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذُ الأذان منه على قدر القرائح والعلوم
أقول: هذه مناسبة أرسل فيها القول كلاً مأثوراً دل على تجربة ودرس.

قلت:

فما تقول، أبا الندى، في قصيدة أبي الطيب في مدح أبي العشائر الحسن
ابن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدويّ.

قال أبو الندى:

تريد القافية من «الخفيف»؟

قلت:

نعم، هي تلك التي مطلعها:

أثرها لكثرة العشاق تحسبُ الدمعَ خِلقةً في المآقي

قال أبو الطيب:

هي إحدى كرائمي، ولا أستطيع أن أوثر واحدة على أخرى.

نعم قد يكون لي عناية وخصوصية في بعض منها، وذلك أمر فرضته عليّ
الأحداث الثقال.

قال أبو الندى:

ليكن لنا في غيرها، وهنّ كثر، ما يكون من الباقيات الصالحات. أترى
في الشينية بعض حاجة لنا؟
قلت:

هي كغيرها في مقدّمة المديح، ولكن ربما وقفت على شيء خاص في
المديح، ذلك أن أبا الطيّب دعا بمدوحه فقال:

فيا بحرَ البحور ولا أورّي ويا ملكَ الملوك ولا أحاشي

قال أبو الطيب:

أُجْرَى قولي هذا على ملق ونفاق أم يحسب حساب الجدّ، وأبو الفوارس
من شهد لهم التاريخ، وكان لهم فيه مكان؟

قال أبو الندى:

مهما طال بنا المقام فلا بد من شيء نجعله مسك الختام، وهو أن نستمع
لامية أبي الطيّب، وقد كانت ذات نغم جميل في ممدوحه أبي العشائر، وفيها ما
فيها مما يجدر بنا الوقوف عليه.

قلت:

أظنك تريد السهلة المحببة التي افتخر فيها وجاء مطلعها:

لا تحسبوا ربّكم ولا طلّله أول حيّ فراقكم قتله

قال أبو الطيّب:

كأنك صرفتها إلى فخري وحماستي لقولي فيها:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث والنجل من نجله
وإنا يذكّر الجدود لهم من نفروهم وانفدوا حيلة

قلت:

والله لقد نفرتهم بفخرك وما غلبوك، ولأنت ابن بجديتها. ولكن غلبت
عليك حماستك فنسيت صاحبك الممدوح أبا العشائر إلا بعد اثني عشر بيتاً كنت
فيها صاحب القدح المعلن.

لقد قلت في فخرك وزهوك:

فخراً لعصب أروح مشتملة وسمهري أروح معتقلة

وسموت في فخرك وزهوك فقلت:

وليفخر الفخر إذ غدوت به مرتدياً خيرته ومنتعلة
أنا الذي بين الإله به ال أقدار والمرء حيثما جعله
على رسلك أبا الطيّب، أليس هذا وغيره مثله أو أكثر منه هو الذي حفز

خصومك أن يخوضوا فيه ويجعلوك من الجاحدين؟

قال أبو الندى :

كأن هذا الذي كان من أبي الطيّب جُلّ القصيدة، ثم يأتي المديح وهو
على حسن الصنعة فيه، ليس شيئاً مع هذا الذي سمعناه من فخره وحماسته .
ولأبي الطيّب في ممدوحه أبي العشائر كلمات أخرى، منها مقطوعة بدأها
بقوله :

الناسُ ما لم يَرَوْك أشباهُ والدهرُ لفظُ وأنت معناه
قالها وهو يودع صاحبه أبا العشائر الذي غادره في سفر.

وقال في مقطوعة أخرى :

لأَمْ أناسُ أبا العشائر في جُودِ يَدَيْهِ بالعَيْنِ والوَرِقِ
وإِذَا قِيلَ لَمْ خُلِقَتْ كذا وخالِقُ الخَلْقِ خالِقُ الخُلُقِ
ويحسُن بي أن آتي على مقطوعة أخرى قالها فيه وقد غضب عليه، فأرسل
غليظاً له ليقعوا بأبي الطيّب، بظاهر حلب ليلاً، فرماه أحدهم بسهم، وقال :
خذه وأنا غلام أبي العشائر، فقال شاعرنا :

وَمُتَّسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبَهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ
فَهَيْجَ مَنْ شَوْقِي وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلَوْفُ
وَكُلُّ وَدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَدَى دَوَامَ وَدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ

ونفسي له نفسي الفداء لنفسه ولكن بعض المالكين عنيف
فإن كان يبغى قتلها يك قاتلاً بكفئه فالقتل الشريف شريف

قلت :

أحسنت، أبا الطيب، لقد سموت في خُلقك، فلم تقابل نزعة للشر
صدرت من صاحبك الممدوح بمثلها، بل جازيته بالكلم الرقيق، وذلك أمضى

سلاح يحزّ في قلب ممدوحك. ولولا خشيتنا من إطالة الجلوس، وأنتك ربما لحقك منه نصيب لأثرنا أن نباشر «السيفيات» المحجلة، وهي فرائدك التي كتب لها البقاء.

وللى مجلس قادم.

المجلس السادس

قال أبو الندى:

لقد حان موعدنا للذهاب إلى مجلس أبي الطيب، وهو في انتظارنا من غير شك. وسيكون معي الليلة قصائده السيفية وشيء آخر إن سمح به الوقت.

قلت:

وهذا ما أعددتُه أنا أيضاً، وهكذا كنا في مجلس أبي الطيب فقلت له: هل لك أن تسمع ما قلته في سيف الدولة؟

قال أبو الطيب:

وليكن ما قلته فيه عند منصرفه من الظفر بحصن برزويه، وعودته إلى أنطاكية، وقد جلس في «فازة»، وهي مظلة بعمودين، من الديباج عليها صورة ملك الروم، وصور وحش وحيوان، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٧ هـ.

قال أبو الندى:

نعم هي الميمية البارة التي اجتمع فيها الوصف لهذا المجلس الفخيم، والمديح لسيف الدولة بن حمدان.

وقد سنحت منه لحظات انصرف فيها إلى عواطفه فقال في نسيب تجاوز طابع «المقدمات»:

وفأؤكها كالرَّبْع أشجاء طاسِئمة بأن تُسعدا والدمعُ أشفاهُ ساجئة

قلت:

أحسنْتَ، أبا الندى، في هذه القطعة من النسيب ورد قول أبي الطيب الذي حفظناه قبل أن نعرف القصيدة، وهو:

بَلِيْتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَائِمُهُ
وقد خلص من نسيبه إلى وصف «الفازة» فقال:

وَمَا خَضَبَ النَّاسُ الْبَيَاضَ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَلَكِنْ أَحْسَنَ الشُّعْرُ فَاجِئُهُ
وَأَحْسَنَ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبةِ كُلِّهِ حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهُ
عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تُحْكَمْهَا سَحَابَةٌ وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تُغْنِ حَمَائِمُهُ

تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحاً بِهِ يُحَارِبُ ضِدُّ ضِدِّهِ وَيَسْأَلُهُ
إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَا جَ كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِيزِهِ وَتَذْأَى ضَرَاغِمُهُ
وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذَلَّةٌ لِأَبْلَجٍ لَا تِيْجَانُ إِلَّا عَمَائِمُهُ
تَقْبَلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَهُ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُفُّهُ وَبَرَايِمُهُ

ثم مضى في مديحه، فماذا يقول في سيف الدولة الأمير الشجاع صاحب المعارك المشهورة مع الروم. وقد استطاع أبو الطيب أن يتخذ من مواد المديح هذه صنعة فنية بارعة.

ومن هذا ما قاله فيه وقد عزم على الرحيل عن انطاكية:

أَيْنَ أَزْمَعْتَ أَيُّهَذَا الْهَمَامُ نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَى وَأَنْتَ الْغَمَامُ

قال أبو الندى:

لو لم يكن في هذه القصيدة إلا قول شاعرنا:

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ فِي مَرَادِهَا الْأَجْسَامُ
لَكَانَ هَذَا وَحْدَهُ قَصِيدَةً أَيْ قَصِيدَةً.

وكان صلات أبي الطيب مع ممدوحيه كانت صلات حميمة حظي فيها

شاعرنا بما لم يحظ غيره، ولذا كثر أعداؤه وحُسادُه فهو ما بني يشير إليهم
ويغيظهم ويكبتهم.

لقد قال أبو الطيب قصيدة عند رحيل سيف الدولة عن انطاكية مطلعها:
رُؤَيْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْهُمَامُ تَأَنَّ وَعُدَّةُ مِمَّا تُنِيلُ
وجودَكَ بِالْمَقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً فَمَا فِيهَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلُ
لَا كُبْتُ حَاسِداً وَأَرَى عَدُوّاً كَأَنَّهَا ودَاعُكَ وَالرَّحِيلُ
قلت:

لقد خَلَصَ أبو الطيب لسيف الدولة حتى صار شاعره الأول وجليسه
ورفيقه في مقامه وفي سفره. شهد معه المعارك في الثغور والعواصم، وقاتل
ووقف وصمد، وكان له في كل ذلك شعر كثير. واختص به، لا يترك أمراً
لسيف الدولة إلا كان له فيه شعر.

وماتت أم سيف الدولة فقال يرثي ويعزي في لامية من عيون شعره،
مطلعها:

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قتالٍ
قال أبو الندى:

وقد تعجب أن ترى أبا الطيب وهو في مقام الرثاء يلتفت إلى نفسه
فيتحدث عنها على طريقته في حماسته، قال:

ونرتبط السوابق مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي
ومن لم يعشَقِ الدُّنْيَا قَدِيماً وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ

قال أبو الطيب:

أتنكر عليّ أن أقول ذلك، ثم ألا تنظر في أفكارِي التي بدأتها من البيت
الرابع فتجد أنها سبيل إلى الدخول في الرثاء، وهي في قولي:

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال
رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالزايا لآتي ما انتفعت بأن أبالي

ألا ترى أن هذا ليس جافياً عما يأتي بعده وهو:

كأن الموت لم يُفجع بنفس ولم يخطر لمخلوق ببال
صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

قلت:

أحسنت، أبا الطيب، المقال، وليس لي إلا أن أقول: أخذ القوس
باريها.

وقلت راثياً:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وهذا حسن، فما بالك تذهب، وأنت ترثي، إلى المصطلح اللغوي
النحوي فتجعله من مادة رثائك كما في قولك:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
وهذا يذكرني بما مر بنا من قولك في أحد ممدوحيك:

فإذا نوت سقراً إليك سبقتها فأضفت قبل مضافها حاليتها
وكأنك أشرت باستعمال المصطلح النحوي إلى مسألة نحوية هي الفصل
بين المضاف والمضاف إليه، ما أبعد هذا عن الديباجة المليحة التي حفل بها شعر
أبي الطيب.

ولكن ذلك مغتفر لك لقولك في آخر بيت:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وما أظن البلاغيين قد فطنوا لهذه الصنعة، واكتفوا بإدراج البيت في التشبيه الضمني.

قال أبو الندى:

وهل لكما في لاميته التي مدح فيها سيف الدولة وذكر استنقاذه لأبي وائل
تغلب بن داود بن حمدان العدويّ من أسر الخارجيّ، التي مطلعها:

إِلَامَ طَمَاعِيَّةَ الْعَاذِلِ وَلَا رَأْيَ فِي الْحَبِّ لِلْعَاقِلِ
ثم يقول:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ وَتَأْيِي الطِّبَاعِ عَلَى النَّاقلِ
ثم خلاص إلى سيف الدولة بعد عدة أبيات من النسيب فوصف نهوضه
لاستنقاذ أبي وائل، ووصف الجحفل والخيل، وما يتصل بذلك من لوازم
المعركة.

قلت:

لقد ذكّرني، أبا الندى، وأنت في تلاوتك ببعض أبيات لم تكن في
تلاوتك تتصل بالخيل جاء فيها:

شَفَنَ لَحْمٌ إِلَى مَنْ طَلَبَنَ قُبَيْلَ الشَّفُونِ إِلَى نَازِلِ
فَدَانَتْ مِرَافِقُهُنَّ الثَّرَى عَلَى ثِقَةِ بِالدَّمِ الْغَاسِلِ

هذا جيد وحسن، ولكن أكون من تمامه أن تشفعه بقول بعيد عن
مقتضى الحال، وهو:

وما بين كاذبيّ المستغير كما بين كاذبيّ البائلِ
أبو جَهْ مَثَلُ هَذَا إِلَى الْأَمِيرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الَّذِي نَعْتَهُ مُلْكًا فِي بَعْضِ قَوْلِكَ؟
قال أبو الطيب:

وأَيُّ شيء في هذا إن كان وجه التشبيه متوقراً؟

قلت:

إذا كنت ترضى بذاك فكيف تقول في آخر القصيدة:

فذي الدار أخونٌ من مومسٍ وأخذعُ من كِفَّةِ الحابلِ
أيجوز أن يقال هذا في قصيدة تنشد في حضرة أمير كبير. إن هذا مشوب
بما لا يحسن من الأدب.

قال أبو الندى:

أراك أغلظتَ القول لأبي الطيّب، وأخذتَ عليه هَفَوات، وقد علمت أن
الشعراء أمراء الكلام، وأن ما يشطحون فيه مغتفر ولهم منا نحن النقاد بعض
السماح والرخصة.

فإن لم ترض قول أبي الطيب وذكر المومس في قصيدة المديح فسترضى ممن
فتح أبو الطيب لهم الباب، فقال أحد هؤلاء في رثاء أمه:

وطبائع الدنيا طبائع مومسٍ للمنع آونةً وللإعطاء
وأنا أقول: لقد أفسد رثاءه وأساء إلى أمه فأساء إلى نفسه.

قال أبو الطيّب:

أحسنّت، أبا الندى، وأجدتَ القول.

قال أبو الندى:

ومن شعر أبي الطيب في سيف الدولة قصيدتان، لاميته التي قالها عند
مسير سيف الدولة لنصرة أخيه ناصر الدولة لما قصده معز الدولة بن الحسين
الديلمى إلى الموصل، وذلك سنة ٣٣٧، وراثيته التي قالها يمدحه وقد سأله أن
يسير معه لما سار لنصرة أخيه ناصر الدولة.

وكلاهما دخل أبو الطيب في مادته متوجهاً إلى الممدوح وكفى نفسه مؤونة
ما يشقى به من النسب.

قلت:

كأنك، أبا الندى، قد نظرت إلى مسيرتنا فوجدتها طويلة فرحت تقلل من
مراحلها.

و«سيفيات» أبي الطيب تؤلف بعض ديوان، ألم يرث أبا الهيجاء عبد الله
بن سيف الدولة بحلب، وقد توفي بميفارقين بقصيدة من أحسن ما يكون أدب
الرثاء ومطلعها:

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يُضني كذاك الذي يُيلي
توجه فيها إلى سيف الدولة معزياً أحرّ الغزاء.

وله في سيف الدولة لامية مطلعها:

لا الحلم جاذبه ولا بمثاله لولا أذكأر وداعه وزيلاله
وله فيه قافية معروفة مطلعها:

أيدري الربع أي دم أراقا وأي قلوب هذا الركب شاقا
وقد كان له فيها بعد النسب فخر وصل منه إلى سيف الدولة.

قال أبو الندى:

لم أرد أن أتجشم الطريق فأمر فيه مرور العجلان، وإني لأعرف أن شعر
أبي الطيب في سيف الدولة يؤلف ديواناً. وهل أنسى داليتي التي مدحه بها ورثي
أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان وقد توفي في حمص، ومطلعها:

ما سديكت علة بمورود أكرم من تغلب بن داود
وهي التي قال فيها مخاطباً:

يا أكرم الأكرمين يا ملك الأملاك طراً يا أصيد الصيد

وكيف أغضي عن ميمية له في مدحه، وكان قد أمر سيف الدولة غلمانه
أن يلبسوا وقصد ميافارقين ليزور قبر والدته، ومطلعها:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم
وقد جاء فيها:

لحُبِّ ابنِ عبداللهِ أولى فإنَّه به يُبدَأُ الذِّكرُ الجميلُ ويُخْتَمُ
ثم مضى في طريقته في المديح عارضاً لما اتصف به سيف الدولة من خلال
حميدة: شجاعة وإقدام ورأي سديد في سلمه وحر به، وجود غمر لا يضاهيه فيه
أحد مع وصف جميل لمعاركه ينفذ فيه إلى دقائق الأحداث.
قلت:

لا عليك، أبا الندى، ألم تر أن أبا الطيب حين ينسجم مع صنعته،
ويرى مادته غنية وافرة يبتعد عن كلامه في النسيب.

قال أبو الطيب:

هو ذاك، إن الحديث عن سيف الدولة كثير فهو مسعر حرب وهو جواد
يباري الريح كرماء، فأنى لهذا النسيب الذي يأخذ مني حاجتي ويصرفني إلى
غيرها؟

قلت:

لقد أحسنت المديح وأحسنَت التعليل والإعراب عن قصدك في قصيدة
أخرى مدحت فيها صاحبك.

قال أبو الندى:

أي قصيدة عنيت فهن كثر؟

قلت:

حسبتُ أنك تدرك الإشارات، لقد قلت: أحسنت التعليل، فأننا أقصد
لامية شاعرنا التي مدح فيها سيف الدولة، وكان قد ضُرِبَتْ له خيمة عظيمة

فهبت ريح شديدة فسقطت فقال أبو الطيب:

أيقدع في الخيمة العذل ويشمل من دهرها يشمل
تضيّق بشخصك أرجاؤها ويركض في الواحد الجحفل
وكيف تقوم على راحة كأن البحار لها أغل
فليت وقارك فرقتة وحملت أرضك ما تحمل
فصار الأنام به سادة وسدتهم بالذي يفضل
رأت لون وجهك في لونها كلون الغزالة لا يغسل

.....
فلا تُنكرن لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتل

.....
ولما أمرت بتطنيبها أشيع بأئك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل

فهل رأيت أحسن من هذه الصنعة، تطراً حادثة فيتأتى لها أبو الطيب
بحذقه فيكون من ذلك أدب رفيع.

قال أبو الطيب:

لو أحسنت التعليل كما أحسنه أنا. وإنك لناقد جهبذ، وهل يفوت
عليك العين والصرّف، من البهرج والزّيف؟

قال أبو الندى:

لقد شغل سيف الدولة بالروم، فكان ذلك نصراً للمسلمين، وسعادة لنا
نحن الذين تطربنا الكلمة الطيبة، ولنا من ذلك جيمية التي قالها وقد صف
سيف الدولة الجيش في منزل يُعرف بالسنبوس، ودونكها:

لهذا اليوم بعد غدٍ أريج ونار في العدو لها أجيح
تبيت بها الحواضن آمناً وتسلم في مسالكها الحجيح
عرفتك والصفوف معبآت وأنت بغير سيفك لا تعيج

أبَالْغَمَرَاتِ تَوْعَدُنَا النَّصَارَى وَنَحْنُ نَجُومُهَا وَهِيَ الْبُرُوجُ
وَفِينَا السِّيفُ حَمَلْتُهُ صَدُوقٌ إِذَا لَاقَى وَغَارَتِهِ لَجُوجُ

قلت:

وَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَيْنِيهِ الَّتِي بَدَأَهَا بِنِغْمَةٍ فَخَرَتْ حَوْلَ مِنْهَا سَرِيعاً إِلَى مَدْحِ
سِيفِ الدَّوْلَةِ وَوَصَفِ مَآثِرِهِ وَأَشَارَ إِلَى مَا لَقِيَهِ «الدَّمَسْتَقُ» فِي الْمَعْرَكَةِ مِنْ إِذْلالِ،
وَمُطْلَعِهَا:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنَّ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا
وَقَدْ خَتَمَهَا أَحْسَنَ مَا يَكُونُ الْخَتَامُ فَقَالَ:

إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ الْمُخْلِيبِ السَّبْعُ
قَالَ أَبُو النَّدَى:

لَوْ جَازَى لِي أَنْ أَقُولَ: إِنَّ فِي شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي سِيفِ الدَّوْلَةِ تَارِيخاً لِأَيَّامِهِ
وَحُرُوبِهِ مَا عَدِمَتْ الصَّوَابَ، بَلْ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ أَدَبٍ وَفَنٍ رَفِيعٍ. لَقَدْ كَانَتْ
نُؤْيَةً مِنْ قِصَائِهِ سَجَلاً لِمَعْرَكَةٍ، فَقَدْ عَزَمَ سِيفُ الدَّوْلَةِ عَلَى لِقَاءِ الرُّومِ فِي
«السِّنْبُوسِ» سَنَةِ ٣٤٠ هـ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنْ الْعَدُوَّ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفاً فَتَهَيَّيْهِمْ أَصْحَابَهُ،
فَأَنشَدَ أَبُو الطَّيِّبِ:

نَزُورُ دِيَاراً مَا نَحْبُ لَهَا مَعْنَى وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سَاكِنِهَا الْإِذْنَ
وَقَدْ أَنشَدَ دَالِيَّتَهُ حِينَ أَرَادَ سِيفُ الدَّوْلَةِ أَنْ يَقْصِدَ «خَرْشَنَةَ» فَعَاقَهُ الثَّلَجُ
عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

عَوَاضِلُ ذَاتِ الْخَالِ فِي حَوَاسِدُ وَإِنْ ضَجِيعَ الْخُودِ مَنِي لِمَاجِدِ
وَكَانَ لَهُ فِي هَذِهِ الدِّيَابِاجَةِ كُلُّ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تَنْسَجُمُ فِي أَدْبِهِ وَتَفْصَحُ عَمَّا فِي
قَلْبِهِ:

أَهْمُ بَشِيءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ
وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَآنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

ثم كان من هذا النسيج المحكم شطر المديح من القصيدة.

ومن هذه القصائد التي سجلت الأدب الرفيع مع الفائدة التاريخية قصيدته البائية التي مدح فيها سيف الدولة وذكر بناءه لمرعش في المحرم سنة ٣٤١ هـ، ومطلعها:

فَدَيْنَاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبًا فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا
وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ لَنَا فَوَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبَا
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كِرَامَةً كِنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ تُلِمَّ بِهِ رُكْبَا
قلت:

أراك أطلت، أبا الندى، كأنك أردت أن تعتذر عَمَّا بَدَرَ مِنْكَ.

قال أبو الطيب:

لم يكن شيء من ذلك، فأبو الندى عَيَّة علم وظرف أدب، كيف لا،
وهو غرس يَذِيكَ؟

قلت:

لقد ذُكِرَني قولك، أبا الطيب،: «نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كِرَامَةً» بقول
الحسن بن هاني:

وَإِذَا الْمَطِيَّ بِنَا بَلَّغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ
قال أبو الطيب:

وليس هذا ملك أبي نواس، وشعراء العربية قد عَبَرُوا عَلَى هذا الكلام
الحسن، قال غيلان ذو الرمة:

تَمَامُ الْحَجِّ أَنْ تَقِفَ الْمَطَايَا عَلَى خَرَقَاءٍ وَاضِعَةً اللَّثَامِ
قلت:

وما أجمل قولك فيها:

فِيَا شَوْقُ مَا أَبْقَى وَيَا لِي مِنَ النَّوَى وَيَا دَمْعُ مَا أَجْرَى وَيَا قَلْبُ مَا أَصْبَى

لقد لعبَ البينُ المُشْتُّ بها وبى وزَوَّدني في السيرِ ما زَوَّدَ الضُّبَّ
ومن تكنِ الأسدُ الضَّواري جُدودَه يكنْ ليلُه صُبْحاً ومَطْعُمُه عَصْباً
ولستُ أبالي بعد إدراكي العُلَى أكانَ ثَرائاً ما تناولتُ أم كَسْباً

إلى أن تصل في يُسرٍ وثُؤدة إلى الممدوح فتقول فيه فيما تقول:

عليّمْ بأسرار الديانات واللُّغَى له خَطَرَات تفضُّحُ الناسَ والكُتُبَا
وفي هذا عرفنا ما كان من كمال سيف الدولة ما خلا الطعن والقتال.

قال أبو الندى:

وأين نحن من الميمية التي قالها في عتاب سيف الدولة وقد جرى لصاحبنا
خطاب مع قوم متشاعرين وظُنَّ الحَيْفُ عليه والتحامل، وكان لها من مطلعها
وكلماتها شهرة أي شهرة:

واحرَّ قلباه ثَمَنَ قلبه شَيْمٌ ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمٌ
ما لي أكتُمُ حبًّا قد بَرَى جَسدي وتَدَّعي حُبَّ سيف الدولة الأُممُ

وتوجَّه إلى صاحبه بعتابٍ رقيق فقال:

أعيذُها نَظَرَاتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشُّجَمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ
ثم صعد به الغضب فقال:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ إذا استَوَت عنده الأنوارُ والظُّلُمُ
ثم عاد إلى نفسه عود الواصل من مجده وكماله فقال:

أنام ملء جفوني عن شوارِدِها ويسهرُ الخَلْقُ جَراها ويختَصِمُ
وقسا على المتشاعرين فقال:

وجاهل مدَّه في جهلِهِ ضَحْكي حتى أَتَّه يدُ فَراسة وفَمُ
إذا رأيت نُيوبَ الليثِ بارزةً فلا تَظُنَّنْ أَنَّ الليثَ يبتَسِمُ

إلى أن يقول:

ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شَرَفِي أنا الثُّرَيَّا وذانِ الشَّيْبِ والمَهرَمِ

ثم قال :

بأي لَفْظٍ تقول الشعرَ زَعْنَفَةً تجوز عندك لا عُربٌ ولا عَجَمٌ
قلت :

ما أَرْقَهُ من عتاب وما أقساه، وما ترجو من عتاب يجود به أبو الطيّب؟
وعتابه هذا قد كان له في نفس سيف الدولة مكان، وهل يُفَرِّط هذا
الممدوح الكريم بهذه الألمعية الفريدة. وقد كان منه أن سَعَى إلى مَرْضاته فعاد
شاعرنا يقول في مدحه في قصيدة مطلعها :

أجابَ دمعِي وما الداعي سِوَى طَلَلٍ دعا فلبّاه قبل الرُّكْبِ والإِبِلِ
وهي التي جاء فيها مما نحفظه ونرده :

لأن حَلَمَكَ حِلْمٌ لا تَكَلُّفُهُ ليس التَّكَلُّفُ في العَيْنَيْنِ كَالْكَحْلِ
قال أبو الندى :

لقد أشرت إلى القيمة التاريخية في مديح أبي الطيب لسيف الدولة، وها
هو في لامية فيه يأتي على ذكر الأمكنة والبلاد ويشير إلى قسطنطين ملك الروم في
قصيدته التي مطلعها :

لياليٌ بعد الظاعنين شُكُولُ طِوَالٍ وليل العاشقين طَوِيلُ
وفيها يذكر «هَنْزِيْط» و«سِمْنين» و«سُمَيْسَاط» قلت :

وله مع سيف الدولة مواقف قال فيها مقطوعات عدة وقصائد أخرى،
كأن يعوده في مرضه فيقول، وأن يشفى من مرضه فيقول في كل ذلك أبو
الطيب أدباً غَضّاً. وتمر مناسبة كعيد الفطر أو عيد الأضحى فيكون ذلك مما
يدعوه أن يقول في مدحه وتهنئته .

ومن هذه قصيدته في تهنئته بعيد الأضحى التي مطلعها :

لكل امرئٍ من دَهرِهِ ما تَعَوَّدَا وعادةُ سيفِ الدولة الطعنُ في العَدَى

وقد عَرَّضَ فيها بِقُسطنطين ملك الروم فقال:
وما طَلَبْتُ زُرْقَ الأَسْنَةِ غَيْرَهُ وَلَكِنْ قُسطنطينَ كان له الْفِدَى
قال أبو الندى:

كنت أستظهر أبياتاً من هذه القصيدة ولا أدري مكانها من هذه القصيدة،
وهي:

هو الجَدُّ حتى تَفْضُلَ العَيْنُ أُخْتَهَا وحتى يكون اليومُ لليومِ سَيِّداً
.....
ومن يجعل الضِرْغامَ للصيدِ بازَه تَصَيِّده الضِرْغامُ فيما تَصَيِّداً
.....
وما قَتَلَ الأحرارَ كالْعَفْوِ عَنْهُمْ ومن لك بالحرِّ الذي يحْفَظُ اليداً
إذا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وإنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمَرَّدَا
ووضعُ النَّدَى في موضعِ السيفِ بالعلَى مُضِرُّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدَى
ثم افتخر فقال:

وما الدهرُ إلا من رُواةِ قصائدي إذا قلتُ شعراً أَصَبَحَ الدهرُ مُنْشِداً
قلت:

لله دُرْكُ، أبا الطيب: لقد أدركتُ أَنَّ الدهرَ وأبناء الدهرِ من رِواةِ
قصائديك، وكان لك ذلك.

وما لك، أبا الندى، قد تجاوزت القافية الغزلة المحببة، ألم يأت فيها على
ما كان لسيف الدولة من عظمة، وقد أشار فيها أبو الطيب إلى رسول ملك
الروم فقال:

وقد سار في مَسْراكِ منها رِسلُهُ فما سار إلا فوقَ هامِ مُفْلَتِي
.....
.....

ولو تلوَت ما كان فيها من نسيب لوقفْتَ فيه على حَبِّ مَكِين، وهي التي

مطلعها الذي أشرنا إليه :

لَعَيْنِيكَ مَا يَلْقَى الْفَوَّادُ وَمَا لِقِي وَلِلْحَبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ
قال أبو الندى :

لقد أكثر أبو الطيّب قوله في ممدوحه سيف الدولة، ولا سيما علاقته
بالروم . لقد دخل عليه رسول ملك الروم فكان من أبي الطيب قصيدتان سجل
فيهما ما كان من هذه الحادثة، ومدح فيها ممدوحه . ومطلع الأولى :
ظَلُمَ لَذَا الْيَوْمِ وَصَفٌ قَبْلَ رُؤْيَتِهِ لَا يَصْدُقُ الْوَصْفَ حَتَّى يَصْدُقَ النَّظَرُ
ومطلع الثانية :

دروع لملك الروم هذي الرسائل يَرُدُّ بها عن نفسه ويشاغلُ
ولم يكن في هاتين القصيدتين أيّ نسب، بل باشر ما أراد أن يقوله .
قلت :

ولأبي الطيّب قصائد في سيف الدولة في وقائعه مع غير الروم، ومن
ذلك : أن بني كلاب قد أحدثوا حدثاً بنواحي بالس، فسار سيف الدولة
خلفهم، وأبو الطيب معه، فأدركهم بعد ليلة بين ماعين يُعرَفان بالغبارات
والخرارات، فأوقع بهم وملك الحريم، فأبقى عليه، فقال أبو الطيب بعد
رجوعه من هذه الغزوة، وأنشده إياها في جُمَادَى الأخرى سنة ٣٤٣ هـ،
ومطلعها :

بَغَيْرِكَ رَاعِباً عَيْتَ الذَّنَابِ وَغَيْرِكَ صَارِماً ثَلَمَ الضَّرَابِ
ثم قال :

وَمَمْلِكُ أَنْفُسِ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً فَكَيْفَ تَجُوزُ أَنْفُسَهَا كِلَابُ
ثم قال :

يَهْزُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحَيْهَا الْعُقَابُ
تُكَفِّفُ عَنْهُمْ صُمَّ الْعَوَالِي وَقَدْ شَرِقَتْ بِطُعْنِهِمِ الشُّعَابُ

وَأَسْقَطَتِ الْأَجْنَةُ فِي الْوَلَايَا وَأَجْهَضَتِ الْخَوَائِلُ وَالسَّقَابُ
وَعَمَرُوا فِي مَيَامِنِهِمْ عُمُورٌ وَكَعَبُ فِي مَيَاسِرِهِمْ كِعَابُ
وَعَمَرُوا وَكَعَبَ قَبْلَتَانِ تَفَرَّقَتَا ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ. ثُمَّ مَضَى فِي
وَصَفِ مَا دَارَ فِي الْمَعْرَكَةِ.

وَأَيْنَ أَنْتَ، أبا النَّدَى، عَنْ مِيمِيَّةٍ مَشْهُورَةٍ رَدَّدَهَا أَهْلُ الْأَدَبِ وَجْهَرَةً
الْدَّارِسِينَ مَدَحَ فِيهَا أَبُو الطَّيِّبِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ وَذَكَرَ بِنَاءَ ثَغْرِ الْحَدَثِ سَنَةَ
٣٤٣ هـ، وَمَطْلَعُهَا:

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَقَالَ فِيهَا:

يَكْلَفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْخَضَارِمُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

هَلْ «الْحَدَثُ» الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْغُبَائِمُ
سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُّ قَبْلَ نَزْوِلِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَاجِمُ
بَنَاهَا فَاعْلَى وَالْقَنَا يَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَابِا حَوْلَهَا مِتْلَاطِمُ
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جِثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّمَا سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا هُنَّ قَوَائِمُ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
خَمِيسُ بَشْرِقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجَوَازِ مِنْهُ زَمَازِمُ
.....

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
قَالَ أَبُو النَّدَى:

أَرَاكَ أُعْجِبْتَ بِالْقَصِيدَةِ، وَالَّذِي لَمْ تَذْكُرْ مِنْهَا كَثِيرٌ، وَفِيهَا شَذَرَاتُ لَامِعَةٍ
مِنْ أَمْتَعِ مَا وَرَّثْنَا مِنْ أَدَبِ الْحَرْبِ، عَرَضَ فِيهَا لِلدَّمِاسْتِقِ قَائِدُ الرُّومِ وَمَا كَانَ

من هزيمته، ولكنك أغضيت عن شيء من عادتك أن تشير إليه.

قال أبو الطيب:

كأنك، أبا الندى، تغمزني في قولك، ألم ترد أن تقول: أين قولك:
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
وكأنك أردت أن تقول: أنت القائل وقد عودتنا أن تأتي بهذا في
شطحاتك.

وإلى مجلس قادم نستأنف فيه ما بقي من هذا المعين الثر.

المجلس السابع

قال أبو الندى:

أتشط، شيخي الجليل، فنستأنف الذهاب إلى مجلس شاعرنا؟

قلت:

ولم لا... فقد بقي لنا قدر ليس باليسير من شعر صاحبنا في سيف الدولة.

قال أبو الندى:

لو كان لنا أن نؤلف كتاباً في بعض شعره، لكان لنا منه كتاب ضخم في شعره وصلته بسيف الدولة.

فهل لكما أن أتلو ميمته التي قالها وقد ورد فرسان الثغور ومعهم رسول ملك الروم يطلب الهدنة وأنشدها سيف الدولة بحضرتهم وقت دخولهم لثلاث عشرة بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، ومطلعها:

أَزَاعَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمَامٌ وَسَحَّ لَهُ رُسُلُ الْمُلُوكِ غَمَامٌ
.....

إذا زَارَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الرُّومَ غَازِيَا كَفَاهَا لِمَامٌ لَوْ كَفَاهُ لِمَامٌ
.....

وما تنفع الخيلُ الكرامَ ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرامِ كرامٌ

وقد أشار فيها إلى خضوع الروم:

كتائب جاؤوا خاضعين فأقدموا ولو لم يكونوا خاضعين لحاموا
قلت:

هذه كغيرها من شعره في سيف الدولة، لقد منحه الممدوح سعة في
القول، ولكننا نحفظ من قافيته الأبيات الحسان ومطلعها:

تذْكَرْتُ ما بين العُذَيْبِ وبارقِ بَجَرٍّ عَوالينا وَبَجَرَى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةِ قومٍ يَذْبحونَ قَنِصَهُمْ بفضلة ما قد كَسَروا في المِفارِقِ
ولِئلاً تَوْسَدَنا الثَّوِيَّةُ تحته كأنَّ ثِراها عَنبرٌ في المِرافِقِ
بِلاَدُ إذا زار الحِسانَ بِغيرِها حَصَى ثُرَها ثَقْبَنَه للمِخانِقِ
سَقَتني بِها القُطْرُبُليُّ مَليحَةً على كاذِبٍ من وَعَدِها ضَوْءُ صادِقِ
قال أبو الطيب:

أدركت سبب اختيارك لهذه القطعة، كأنك عَمَزْتَنِي لابتعادي عن موطني،
فلم تجد له أثراً في شعري، وكأنك أيضاً تقول: ما بال أبي الطيب يذكر
«العذيب» و«بارق» وصحبه في تلك الأمكنة، والثوية، وهي موضع أيضاً بقرب
الكوفة، ويذكر «قطربل» وهو موضع بالعراق تنسب إليه الخمر. ما باله ذكر
هذا كله، وابتعد عن الديار التي اتخذها وطناً له من بلاد الشام!

قلت:

لم أرد والله هذا، ولا خطر لي ببال، ولكنها مسألة تحيك في نفسك فتحن
إلى أهلك ومثواك، وإن لم تصرّح بذلك في شعرك، بل كان منك غير هذا،
ألسنت البائل:

«وكلُّ مكانٍ يُنبِتُ العِزَّ طَيِّبٌ».

قال أبو الندى:

لقد قطع علينا أبو الطيب ما كنا فيه من عذوبة هذه القصيدة وإن كان
فيها شيء لا نرتضيه لشاعرنا أبي الطيب، ألم يكن فيها قوله:
وأغيدُ يَهْوَى نفسَه كلُّ عاقلٍ عَفِيفٍ وَيَهْوَى جِسْمَه كلُّ فاسِقٍ

إني لأجل شاعر العربية عن هذا.

أديبٌ إذا ما جَسَّ أوتارَ مزْهَرٍ بلا كُلِّ سَمْعٍ عن سِواها بعائقي
يُحدِّثُ عَمَّا بين عادٍ وبينه وصدَّغاه في خدِّي غلامٍ مراهقي
قلت:

على رِسلِكَ، أبا الندى، ما تفتأ تُغضبُ أبا محمَّدٍ بكَلِمِكَ في عَمَزٍ ولَمَزٍ،
ألم تتلَّ من قصيدته هذه قوله:

وما الحسن في وَجْهِ الفتى شرفاً له إذا لم يكن في فِعْله والخلائقِ
وما بَلَدُ الإنسان غيرُ الموافقِ ولا أهله الأذنونَ غيرُ الأصاديقِ
إلى أن يقول مشيراً إلى القبائل التي تمرَّدت على سيف الدولة فمضى
يقاتلها، وكان له ذلك فقد أخضعها ودانت له:

أرادوا «عليّاً» بالذي يُعجز الورى ويوسع قتلَ الجحفل المتضايقي
لقد قاتلهم بعد أن كان أحسن إليهم:

ولمَّا كسا كَغَباً ثياباً طَعَوْا بها رَمَى كُلَّ ثوبٍ من سِنانٍ بخارقي
قال أبو الندى:

ليس لي من هذه القصيدة العامة إلا قوله:

وملمومةٌ سيفيَّةٌ رَبعيَّةٌ يصيح الحَصَى فيها صياح اللقائقي
قال أبو الطيب:

أصَبْتُها، أبا الندى، أشايعت أصحابك الحُسادَ من أهل النقد فَعَمَزْتَنِي
بقولي «اللقائق»؟

قال أبو الندى:

لم أرد هذا، ولكني أردت أني كنت أجهل مواطن الجمال في هذه
القصيدة، وليس لي منها إلا ما كنا قد قرأناه في كتب الدرس أيام الطلب.

قلت:

ومثل هذه القصيدة كانت رائيته التي وصف فيها إيقاع سيف الدولة بالقبائل في نواحي الفرات والخابور، ولم يحضر أبو الطيب الواقعة ولكن الممدوح شرحها له فكان ما جاء في هذه الرائية التي مطلعها:

طِوَال قَنَا تُطَاعُنْهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدَى وَوَعَى بِحَارُ
وقد جاء فيها وصف إيقاعه بالمتمردين وكسر شوكتهم وإخضاعهم، وعودتهم إلى الطاعة صاغرين.

قال أبو الندى:

ومن دلائل إخلاص شاعرنا لممدوحه أنه رثى الذين تُوقُوا من أسرته، وها هو يرثي أخت سيف الدولة الصغرى فيقول:

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّزِيَّةِ فَضْلاً تَكُنِ الْأَفْضَلُ الْأَعَزُّ الْأَجَلُ
فقد رثاها وأثنى على كرم محبتها وعزى أخاها عزاءً جميلاً.

قلت:

وكان كعاداته، فلم تنسه المصيبة إرسال الحكمة والقول المأثور فقد قال:

ولَئِذَا الْحَيَاةِ أَنْفَسَ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمِلَّ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍ فَمَا مَلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضُّعْفُ مَلَأَ
آلَةَ الْعَيْشِ صَحَّةً وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّىَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى
أَبْدَأُ تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُّ الدُّنْيَا فَيَا لَيْتَ جَوْدَهَا كَانَ بُخْلًا

قال أبو الندى:

لقد مَنَحَتْ سيرة سيف الدولة شاعرنا مادةً للقول، فقد قال بمدحه ويذكر نهوضه إلى ثغر «الحَدَث» لما بلغه أن الروم قد أحاطت به وذلك في جُمادى الأولى سنة ٣٤٤ هـ في قصيدته التي مطلعها:

ذِي الْمَعَالِي فَلْيُعْلَوْنَ مِنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا
شَرَفَ يَنْطِخُ النُّجُومَ بِرُوقِهِ وَعَزُّ يُقَلِّقُ الْأَجْبَالَا
حَالِ أَعْدَائِنَا عَظِيمٍ وَسَيْفُ الدُّوَلَةِ ابْنُ السَّيُوفِ أَعْظَمُ حَالَا

قلت:

صدقت، أبا الندى، إن شعر أبي الطيب في سيف الدولة يؤلف ديواناً
خاصاً، وها هي نونيته إحدى فرائده في سيف الدولة، خلّص فيها لفنه فعزّف
عن «مقدماته» فابتدأها قائلاً:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أوّل وهي الحِلّ الثاني
فلإذا هما اجتماعاً لنفسٍ حُرّةٍ بَلَغَتْ من العلياء كلّ مكانٍ

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ
ثم مضى في مدح سيف الدولة، وقد أنشده إيّاها بآمد وكان منصرفاً من
بلاد الروم وذلك في صَفَر سنة ٣٤٥ هـ.

وقال في آخرها:

إن السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهنّ إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حدّه مثل الجبان بكفّ كلّ جبانٍ
قال أبو الندى:

وكتاب أبي الطيب مع سيف الدولة ذو شجون، فشؤون سيف الدولة
مشكلات جمة، ولا بدّ لها من موقف أبي الطيب. لقد تحدّث بحضرة سيف
الدولة أن البطريق أقسم عند ملكه أن يعارض سيف الدولة في الدرب وسأله
أن ينجده بطارقه وعدده، ففعل فخاب ظنه. وفي هذا قال أبو الطيب سنة
٣٤٥ هـ وأنشدها سيف الدولة، وهي آخر ما أنشده بحلب:

عُتبي اليمين على عُتبي الوعى ندمٌ ماذا يزيدك في إقدامك القسمُ
والخطاب إلى البطريق.

وفي اليمين على ما أنت واعدّه ما دلّ أنك في الميعاد مُتّهمٌ
ألى الفتى ابنُ شمشقيقٍ فأحتنه فتى من الضرب تُنسى عنده الكلامُ

أين البطريقُ والحلف الذي حلفوا بفرق الملوك والزعم الذي زعموا

ثم يمضى في وصف الحرب وما كان من نصر الجيش الظافر، وهزيمة الروم بكذب حلفهم وخَوَر عزميتهم.

والقصيدة طويلة محجّلة، وفيها من استغراق أدب الحرب مادة جليلة، وقد ختمها بقوله فكان مسك الختام:

لا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَأُ خُتُمُوا
وَلَا تُبَالِ بِشُعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَمُ
ومن مشاهد سيف الدولة إيقاعه بعمرو بن حابس وبني ضَبَّة سنة ٣٢١ هـ، وقد قال في ذلك أبو الطيّب:

ذَكَرَ الصُّبَا وَمَرَاتِعَ الْأَرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي
ثم مضى في نبذة من النسب خلص منها إلى الممدوح، وما كان من موافقه ومآثره وشجاعته إلى أن عرّج على عمرو بن حابس فقال:

مَهْلًا أَلَا لِلَّهِ مَا صَنَعَ الْقَنَا فِي «عَمْرُو حَابٍ» وَ«ضَبَّة» الْأَغْتَامِ
وكان في ختامه:

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُودِّعٍ وَسَقَى ثَرَى أَبْيُوكَ صُوبَ غَمَامٍ
قلت:

وكانت لأبي الطيب لامية خاصة، وخصوصيتها تأتي من أن سيف الدولة قد أنفذ ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية، وكان ذلك بعد خروج أبي الطيّب من مصر وفراقه لكافور، فمضى أبو الطيب في مدحه، وكتب بها إليه من الكوفة سنة ٣٥٢ هـ فقال:

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوِيَا رَسُولُ أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمَتَبُولُ
ومضى في نسب حزين قال فيها قال منه:

وَصَلِينَا نَصْلُكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْمَقَامَ فِيهَا قَلِيلُ
كَأَنَّكَ، أبا الطيب، موشك على الرحيل.

وليس لي إلا أن أمضي في تلاوتي، فالكلم جميل يأخذ بمجامع القلب،
وقد نسيت به أني في «مقدمة» من مقدماتك:

إِنْ تَرَيْنِي أَدِمْتُ بَعْدَ بِيَاضٍ فَحَمِيدٌ مِنَ الْقَنَاةِ الذَّبُولِ
إلى أن قلت:

نحن أَدْرَى وقد سألنا بَنَجِدٍ أطويل طريقنا أم يطولُ
وأشهد أنك خَلَصْتَ إلى صاحبك بصنعة صاحب فنٍّ يملك أدوات لم
تنهياً لغيرك من الشعراء:

كَلَّمَا رَحَّبْتَ بِنَا الْأَرْضِ قَلْنَا حَلَبٌ قَصَدْنَا وَأَنْتِ السَّبِيلُ
وكيف لي ألا أتلو قولك:

ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تُدارُ الشَّمُولُ
قال أبو الندى:

ألم نقرأ منذ ليلال قصيدة شاعرنا في رثاء أخت سيف الدولة التي توفيت
بميفارقين، وقد ورد خبرها إلى الكوفة فقال فيها:

يا أختَ خير أخٍ يا بنتَ خير أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النسب
أجلُّ قَدْرِكَ أَنْ تُسَمِّيَ مُؤَيَّنَةً ومن يَصِفُكَ فقد سَمَّاكَ للعَرَبِ

ألم نقرأ هذا الرثاء المؤلم فنتذكر ما جرى للصاحب بن عباد حين توفيت
أخته فورَدَتْهُ الرسائل مؤيَّنة يرثي بها أصحابها الفقيدة فيبدؤون رثاءهم بقول أبي
الطيب في رثاء أخت سيف الدولة:

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءني خَبَرٌ فزعت فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يَدْعُ لي صدقه أَمْلاً شَرِقتُ بالدمعِ حتى كادَ يَشْرِقُ بي
فحزن صاحب فوق حزنه لهذه الرسائل التي استشهد أصحابها بقول
خصم من خصومه وهو شاعرنا المفلق.

وهي التي قال فيها:

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مَذْنُوعٌ فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الْفَتِيَانِ فِي حَلَبٍ
يُظَنُّ أَنَّ فَوَادِي غَيْرَ مُلْتَهَبٍ وَأَنَّ دَمْعَ جَفُونِي غَيْرَ مُنْسَكِبٍ
بَلَى وَحُرْمَةٍ مَنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً لِحُرْمَةِ الْمَجْدِ وَالْقَصَادِ وَالْأَدَبِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وإن تكن خُلِقْتَ أَنتَى لَقَدْ خُلِقْتَ كَرِيمَةً غَيْرَ أَنتَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ
للهِ دَرَكٌ مَا أَقْسَاكَ عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَنْتَ فِي مَقَامِ رِثَاءِ امْرَأَةٍ جَلِيلَةٍ.

ثم عُدْتُ فَقُلْتُ:

وإن تكن تَغْلِبُ الْعَلْبَاءُ عُنْصَرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْعَنْبِ
قُلْتُ:

وَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ شَاهِدِ أَهْلِ اللَّسَنِ وَالْبَلَاغَةِ فِي قَوْلِهِ:

فَلَيْتَ طَالَعَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةً وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبْ

ولعل سيف الدولة من ممدوحِي صاحبنا الواضح المبرِّز بينهم، الذي كان
شاعرنا شديد الاحتفاء بما يقوله فيه، وذلك آية إخلاص ومحبة. وقد يكون مما
استظهر على هذا ما كان من سيف الدولة حين أنفذ إليه كتاباً بخطه يسأله المسير
إليه من الكوفة، فأجابه بقصيدة وأنفذها إليه في مَيَّافَرَقِينَ، وكان ذلك في شهر
ذي الحجة سنة ٣٥٣ هـ ومطلعها:

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أَبْرَ الْكُتُبِ فَسَمِعْتُ لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ
وَطَوْعاً لَهُ وَابْتِهَاجاً بِهِ وَإِنْ قَصُرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجِبَ

وكان فيها من المديح والإشارات إلى خلال الممدوح الكريمة والفوائد
التاريخية التي تتصل بحربه مع الروم، ما يغني به الناقد والأديب والمؤرخ.
وإلى مجلس قادم يطالعنا فيه شاعرنا بشعره في ممدوحه الإخشيدي.

المجلس الثامن

قال أبو الندى:

لا أدري أكون مجلسنا الليلة شقيّاً بكافور أم سعيداً بفرائد شاعرنا الكبير
الذي مسح على سواد الكافور مسحة من الفضل فكان «أبا المسك»؟

قال أبو الطيب:

أمل أن يتحقق لكما في هذا المجلس ما تصبوان إليه، ولا يفسد عليكما
«أبو المسك»؟ ولا «الملك الأستاذ» سعادتكما.

قلت:

لقد أحسن أبو الطيب في كنيته التي كتّى بها كافوراً، فقد ردّ الاسم إلى
حقيقته، وهي السواد، ورأى أن أدب العربية وكرم العرب في إطلاق أحسن
الأسماء وأرقها وأشدّها لمعاناً على إمائهم وعبيدهم، فكان من ذلك: الياقوت
واللؤلؤ والجوهر والمرجان والكافور ونحو هذا. يقابل ذلك إطلاقهم أشدّ الأسماء
وأقساها وأوحشها على أبنائهم بغية أن يكونوا أشدّاء على أعدائهم، فكان من
ذلك: حجر وصّفوان وجبل وليث وهزبر وغر وذئب ونحو هذا.

وليس في ذهاب أبي الطيب في كنيته لكافور «أبي المسك» ما ينافي أدب
العربية.

قال أبو الطيب:

كأنكما تقولان كيف جاز لك أن تمدحه فتسخر عليه في النعوت، ثم تعود
تهجوه فتنبزه بأقسى ما يكون من التعزير والتحقير؟

قلت:

لا، لم يكن لديّ شيء من هذا ولكن شعرك في كافور يخترن في مطاويه
مرارة والماء، ولعل في ذلك خيبة أملٍ وإخفاق راج.

وأنا أقول: أيّ رجاء ترجوه، وقد حظيت من ممدوحك ابن حمدان الثراء
العريض؟

قال أبو الطيب:

كانك تقول: لقد أردت شيئاً غير هذا الذي يشقى به الشعراء، وهو
الكسب، وأنت تومئ إلى قولي:

إذا لم تُنِظْ بي ضيعةً أو ولايةً فجودك يكسوني ومالك يُسَلِّبُ
قلت:

لم أرد هذا، ولكنك لما كنتَ البادئ في الدخول إلى الصَّيَال، كان ذلك
عوناً لي أن أصارحك بالذي ما كنتَ أرضاه لك، وهو أن تقف من هذا الخصيِّ
الأسود الذي جعلته «أبا المسك»، فتقول له:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فلإني أُغني منذ حينٍ وتشربُ
أيقول هذا من قال وهو يقابل نفسه فيأسى ويشجع:

ولا تَحَسَبَنَّ المجدَ زَقاً وَقَيْنَةً فما المجد إلا السيف والفتكة البكرُ
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى لك الهبّوات السود والعسكرُ المجرُ
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تداولَ سمعَ المرء أئمّة العُشُرُ

ولا تحسبني، أبا الطيب، من بعض حسّادك، فقد والله كرهتهم وما
دنوت من سِرِّهم، وصاولتهم وكنْتُ معهم ألدَّ المخاصمين.

قال أبو الندى:

أرانا قد ذهبنا بعيداً ولم نلتمس حاجتنا، فما تقولان في اليائية الشهيرة التي
مطلعتها:

كَفَى بكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمْنِيَّتُهَا لَمَّا تَمْنَيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقاً فَأَغْيَا أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا

فَمَا يَنْفَعُ الْأَشَدَّ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى وَلَا تُتَقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا
حَبِيبُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ عَدَاراً فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

قلت:

أَحْسَنْتَ، أبا الندى، لقد جئتُ بها، ألا ترى أنَّ شاعرنا نضو ألم دفين
يتجرَّعه أمرٌ من العلقم؟

إنه عاتب على الذي كان له معه صلة حميمة، وقد أحضه وُدّه وانطلق في
الإشادة به، وكأنه أبٌ كما يؤوب من الغنيمة بخفي حنين.

إنه سيف الدولة الذي صرف إليه فنّه وجهده وحذق في صناعته.

قال أبو الندى:

إذا كان هذا فكيف يصفه «بالقدر»، هذا ما لا يدخل في حيز العتاب،
ولو قلت: شتيمة وقذف لكان أصحّ. ألا ترى أنه قال بعد ذلك:

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتُ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا
فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ عُذْرٌ بَرَّيَا إِذَا كُنَّ لِثَرِّ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا

أَقْلُ اسْتِيقَاً أَيُّهَا الْقَلْبُ رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مِنْ لَيْسِ صَافِيَا
خُلِفْتُ الْوَفَا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لِفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

قلت:

هذا ألمٌ من نديمٍ على مجدٍ ضيّعه، وعلى صنيعٍ حسنٍ لم يقابل بما يكافئه.

ولكن هل كنت، أبا الطيّب، ألوفاً؟ إني لأشك في هذا، ذلك أن هذه
النفس الملتهبة التي تسمو إلى العلاء، والقلب الذي يأسى لأن صاحبه لم يستطع
إدراك حقّه المسلوب، لا يمكن أن يكون، كما قلت، «ألوفاً».

أنت صاحب طِمَاح، وطِمَاحك أنك وأهل بيتك قد حيزت عنهم الرئاسات
والولايات، فأني مرارة أقسى من أن يلجئك الخطب فتأوي إلى الأخشيديّ الخصي؟
قال أبو الندى:

ولكن قد كان في القصيدة مدح كافور وذلك بعد قوله:
ولكنّ بالفُسطاطِ بحراً أرزُته حَياتي ونُصحي والهوى والقوافيا
وجُرداً مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا الْقَنَا فَيَتَنَ خَفَافاً يَتَّبِعُنَ الْعَوَالِيَا
.....
.....
قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَلَ السَّوَاقِيَا
.....
أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً إليه وذا اليوم الذي كنت راجياً
قلت:

على رسلك، أبا الطيب، ولا تفقد من غُرْبِكَ، فأنت أجلُّ ممَّا صِرْتَ
فيه، وأين «البحر» الذي «استقللت معه السواقي»؟ ولا أدري كيف غَلَبَتْكَ
الخطوب فذهبت أبعدَ مذهب حتى قلت:
أبا كل طيبٍ لا أبا المسكِ وحدَهُ وكلُّ سحابٍ لا أخصُّ الغواديَا
قال أبو الطيب:

لا أدري والله، كيف يكون لي أن أصبر على جوركما، أيقال لي، وأنا أبو
مُحَمَّد، هذا القول؟
قلت:

فكيف لي أن أفهم مدحك لكافور على غير حقيقته؟ إنك مع كافور
صاحب حاجة بل راجٍ لمنفعة ومصوّب لغرض، ما أراك تنوشه، ألم تقل له:
وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقيين واليا
فقد تهبّ الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

لا أريد، أبا الطيّب، أن أسيء إليك، ولكنها نفس جُبِلَتْ على حب الدنيا، وإن النفس لأَمارة بالسوء.

قال أبو الندى:

لا تذهبا في لجاجة تفسد علينا طيب مجلسنا، وانظر شيخى إلى هذه القصيدة تَرها هيكلًا أَحْسَنَ بناؤه فجاء فيه كل ركنٍ ينظر إلى الآخر فيرتبط به بوشائج أصيلة.

وانظر كيف كان فيها قوله:

إذا الجود لم يُرزَقْ خلاصاً من الأذى فلا الحمدُ مكسوباً ولا المال باقياً
إنها لحكمة طيبة، وأيُّ شيء هذا الذي يلغظ به النحاة؟

ثم قال:

وللنفس أخلاقٌ تدلُّ على الفتى أكان سخاء ما أتى أم تساخياً
وإذا كان لنا أن نجول في هذه «العمارة» التي أحسنَ تشييدها أبو محمّد
فذلك يُجزئ عن أن نقول شيئاً في همزته في كافور مهنتاً إياه على بنائه داراً له
بإزاء الجامع الأعلى على البركة.

غير أن هذا لا يُعفيننا من النظر في بائته المحجّلة التي مطلعها:

مَنْ الجَادِزُ في زِيّ الأعاريبِ مُحَرَّ الحِلَى والمطايا والجلابيبِ
قلت:

يهمني من أمر هذه الديباجة في النسيب قول شاعرنا:

كم زورةٍ لك في الأعراب خافيةٍ أذهى وقد رَقَدُوا من زورة الذيبِ
أزورهم وسواد الليل يشفَعُ لي وأثنى وبياض الصبح يُغري بي
وليس اهتمامي بهذا هو اهتمام أهل البديع بما في البيت من «المقابلة» بين
الضرب والعجز، فما أبعدني عن ألاعيهم في الطباق والجناس.
ثم لا أنسى أن من أول ما استظهرت أيام الطلب من شعر أبي الطيّب هو

قول أبي الطيب:

حَسُنُ الحِضَارَةُ مَجْلُوبٌ بَطَطِيرِيَّةٍ وفي البِدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ
وقوله:

أَفْدي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضَغَ الكَلَامِ وَلَا صَبَغَ الحَوَاجِبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الحَمَامِ مَائِلَةً أَوْرَاقَهُنَّ صَقِيلَاتِ العِرَاقِبِ
وَمَنْ هَوَى كُلُّ مَنْ لَيْسَتْ مُمُوهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبي غَيْرَ مَخْضُوبِ
وَمَنْ هَوَى الصَّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادِيهِ رَغَبْتُ عَنْ شَعْرِ فِي الرَأْسِ مَكْذُوبِ
قال أبو الندى:

وَأين نحن من قوله المأثور الذي ينطلق بلباقة ورشاقة فيستظهره السامع
وهو لا يدري:

لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ مِنِّي بِجِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرَّبِي
فَمَا الحَدَاثَةُ مِنْ جِلْمٍ بِمَانِعَةٍ قَدْ يُوْجَدُ الحِلْمُ فِي الشَّبَابِ وَالشَّيْبِ
وهكذا كانت «الحداثة» سبيلاً إلى «تخلّصه» إلى صاحبه فقال:

تَرَعَّرَعَ المَلِكُ الأَسْتَاذَ مَكْتَهَلاً قَبْلَ اكْتِهَالِ أَدِيبٍ قَبْلَ تَأْدِيبِ
قلت:

مَا أَسْخَاكَ أَخِي أبا الطيب، تَمْنَحُ الأَلْقَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا بَشْيَءً، فَكَأَنَّكَ
تَعُودُ بِاللَّقَبِ إِلَى أَصْلٍ وَضَعَهُ، أَلَمْ يَكُنْ فِي شَوَاهِدِنَا النَحْوِيَّةِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ:
أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا أَلْقُبُهُ وَالسُّوْءُ اللَّقْبِ
عَافَاكَ اللهُ، كَيْفَ صَيَّرْتَ الخَصِيَّ الأَسْوَدَ «أَسْتَاذاً»! ثُمَّ مَضَيْتَ فِي مَدِيحِ
حُلُوِّ عَذْبٍ، وَلَكِنَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

وَإِذَا جُدَّتْ عَلَيْهِ فَصَارَ «مَلِكاً» وَ«أَسْتَاذاً» فَكَيْفَ قُلْتَ فِي آخِرِ فَرِيدَتِكَ
الحسناء:

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الغَانِي بِتَسْمِيَةِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَنْ وَصْفٍ وَتَلْقِيبِ

لا أدري كيف كان ذلك .

قال أبو الطيب :

لقد ضاق صدري بكما، وما أراكما إلاّ أخويّ، فكيف جُرئنا عليّ،
وأنكرتما سوء حالي وأنا أهُمّ على مبارحة «حلب» تاركاً صاحبي الذي «أغرى
المتشاعرين» في فتقؤلوا وحسدوا وأساءوا .

ألم تمرّوا على ميميتي التي وقفتم فيها على عتابٍ أفسى من الهجاء . ألم
أخاطب ابن حمدان بقولي :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوارُ والظلمُ
قلت :

لا تبتس، أبا الطيب، بكلماتي، فقد يقسو الصديق على صديقه وهو
يقصد تأكيد مودّته .

وليس الذي قلته في القصيدة عيّاً، وهي فوق ذلك، ولا أقول : لا تعديم
الحسنة داما .

قال أبو الندى :

ولتجاوز الدالية في مدح كافور التي مطلعها :
أودّ من الأيام ما لا تودّه وأشكو إليها بيننا وهي جُنْدُه
ونعرض لميمية من فرائد شاعرنا .

قلت :

مهلاً، أبا الندى، ليس لنا أن نمر مرور العجلان على الدالية ولا نقف
على قول أبي محسّد :

فلا نجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

قال أبو الطيب :

وهذه أخرى، كأنك تومئ إلى ما رَوَّجَه الأعداء في واثمهم لي بالبخل،
وصنعوا وحاكوا الأراجيف من الحكايات.

قلت:

أقسم أن ليس شيء من ذلك قد كان معي، ولكني فطنت إلى شيء من
الاعيب أهل البديع أسموه «رَدَّ العُجْز على الصدر».

قال أبو الندى:

لقد تجاوزنا أمر حوارنا فصار بعضنا يظن في صاحبه سوء، وإن بعض
الظنَّ إثم.

ولنعد إلى الميمية التي تذكّر فيها أبو الطيب ما فات، واستقبل ما جاء إليه
مُيمًا، ومطلعها:

فراقٌ ومن فارتُ غيرُ مُذَمَّمٍ وأُمٌّ ومن يُمَّتْ خيرُ مُيمٍ
ومضى في نسيب ذي أصالة لا يقوى عليها غير أبي الطيب، إلى أن قال:
رَمَى وَاتَّقَى رَمِيٍّ وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوًى كَايِرٌ كَفَى وَقُوسِي وَأَسْهَمِي
قلت:

لقد أومأت، أبا الطيب، إلى سيف الدولة وما كان من جفائه وجفوته في
آخر أيامك في حلب، وإن مودتك له وقفت حائلاً بينكما، فلم تقوَ على هجائه،
أليس كذلك؟

قال أبو الطيب:

بلى، لقد أصبت في هذا.

وأبياتي بعد هذا البيت لا تبعد عما كنت فيه:

إذا ساء فعل المرء ساءت عيوبه وصدَّق ما يعتاده من تَوَهُّمٍ
وعاذى مُحَبِّيه بقول عُدايهِ وأصبح في ليل من الشكِّ مُظْلِمٍ
أُصادقُ نفسَ المرء من قبل جسمه وأعرفها في فِعْله والتكلمِ
وأحلمُ عن خَلِيٍّ وأعلمُ أَنَّهُ متى أجْزِه جِلْمًا على الجهل يَنْدَمِ

قال أبو الندى:

ثم خلص إلى صاحبه فقال:

فَدَى لِأَبِي الْمَسْكِ الْكَرَامِ فَلَمَّا سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِينَ بِأَذْهَمِ

.....
.....

أَبَا الْمَسْكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى الْعَدَى وَأُمْلُ عِزًّا يَخْضِبُ الْبَيْضَ بِالْدَمِ

قلت:

ألي أن أفهم من قولك هذا أنك تأمل من كافور عوناً تستطيع معه أن
تستردَّ حقاً سُلَيْتَهُ فيعود إليك مجدُّ سَعِيَتِ له وسرَّتْ إليه وقد طالت مسيرتك،
وهو ذاك الذي أشار إليه بضعة نفر من أنك وارث الدوحة العلوية التي
ضيمنت؟

أليس لي أن أقول: إن عزوفك عن الاتصال بالرياسة العباسية شيء من
هذا؟ ...

قال أبو الطيب:

أشهدُ أنك ذو فطنة وذكاء لا نجدهما إلا في أفذاذ الرجال.

قال أبو الندى:

وليس لنا حاجة في قصيدة أخرى على فضلها، وهي تلك التي قالها حين
جرت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم مدةً ثم اصطلحا، ومطلعها:
حَسَمَ الصِّلَحَ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ السُّنُ الْحُسَادِ
ولتجاوزها إلى بائية صبَّ فيها أبو الطيب من نوازع نفسه ما جعلها
فريدة من الفرائد، وهي في مدح كافور ومطلعها:

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجر والوصل أعجبُ

قلت:

لا فُضَّ فوك، أبا الندى، إن هذه البائية من أعلaque النفيسة، وهي حاجتنا لكثرة ما اشتملت عليه من الفوائد الحسان.

لقد وقفت فيها على قول أبي الطيب:

عشيّة أحقى الناس بي من جَفَوْتُهُ وأهدى الطَرِيقَيْنِ التي أُنْجِنُبُ
وبودّي أن أُسِرَّ إلى صاحبي أبي الطيب فأسأله، أليس في ذلك إشارة إلى
صاحبك سيف الدولة؟

قال أبو الطيب:

بلى، هو ذاك..

قلت:

لقد وصفت هذه، أبا الندى، فقلت: إنها فريدة من الفرائد فإذا يعني
قولك هذا؟

قال أبو الندى:

من فوائد هذه «الفريدة الحساء» قول أبي الطيب:

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ المَانُوِيَّةَ تكذبُ
أي أن ظلام الليل قد أحسن لأبي الطيب فهي تكذب ما زعمه المانوية،
وهم أصحاب ماني المثلوي القائلون إنّ الخير كله من النور، والشرّ كله من
الظلمة.

ثم لنأت إلى وصف نهاره في قوله:

ويومٍ كليل العاشقين كَمَتُّهُ أراقبُ فيه الشمسَ إِيَّانَ تَغْرُبُ
وعيني إلى أذني أغرَّ كأنه من الليل باقٍ بين عينيهِ كوكبُ

ثم يبدأ في وصف جواده، ويأتي به إلى ممدوحه في رفق ويُسر فيقول:

لحى الله ذي الدنيا مُناخاً لراكبٍ فكلُّ بعيد الهَمِّ فيها معذبُ
ألا ليت شعري هل أقولُ قصيدةً فلا أشتكي فيها ولا أتعَبُ

وبي ما يذودُ الشعرَ عني أقلُّه ولكنَّ قلبي يا ابنةَ القومِ قُلْبُ
وأخلاقِ كافورٍ إذا شئتَ مدحه وإن لم أشأْ تُملي عليّ وأكْتُبُ
إذا تَرَكْتُ الإنسانَ أهلاً وراءه وعِمْ كافوراً فما يتَغَرَّبُ
ومضي أبو الطيب في مديحه فيشير إلى أفعاله «رأياً وحكمةً ونادرةً حين
يرضى ويغضب».

ويشير إلى شجاعته و«عطاياه التي تزيد كثرةً على اللَّبْث في حين تنضُب
أمواه السحاب».

قلت:

ونأتي إلى قوله:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فلإني أغني منذ حينٍ وتشربُ
لقد هالني أن يذهب صاحبي أبو الطيب إلى هذا الحد ويرضى لنفسه أن
يكون صنّاجة طرب يتقرَّب بطربه إلى «الملك الأستاذ، أبي المسك».

ما كنتُ أرضى لصاحبي هذا، وإن قال بعد هذا البيت:
إذا لم تُنِظْ بي ضيعةً أو ولايةً فجودك يكسوني وشغلك يسلبُ
قال أبو الطيب:

والله لقد تركتني في مثل حُجر الضَّبِّ فما أدري ما أقول. لقد أشرتُ إلى
أني طالبُ حاجة بعيد مطلبها، فما حيلتي وأنا المضطر...؟
قال أبو الندى:

دَعْ عنك هذا، وانظر إلى حنينه إلى أهله حين قال:
يُضاحِكُ في ذا العيدِ كُلِّ حبيبِه جذائي وأبكي من أحبٍّ وأنْدُبُ
أجِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاقِ غنقاء مغربُ
قلت:

ولكن ما لبث أن قال بعد هذا الكلام العذب:

فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هم فإنك أحلى في فؤادي وأعذب
فأين صار إذن حنينه وتوجعه؟

أفي ذلك شك وأنت تجد أبا الطيب يقول بعد هذا البيت:
وكلُّ امرئٍ يُولي الجميل حُبُّ وكلَّ مكانٍ يُنبِت العزَّ طيبُ
أبقي بعد هذا أيُّ قول في حنينه لأهله ووطنه.

أترأى استبدلت، أبا الطيب، مقامك في حضرة الإخشيدي بأهلك
ووطنك؟

قال أبو الطيب:

وماذا ترى في وطن لم تجد فيه ما تطلبه ويعز عليك أن تحقق لنفسك
صَبَواتها؟

إنكما لم تُدركا ما أصبو إليه، ولو عرفتما من أمره بعض شيء لوجدتُ
لديكما متعة في العذر، ولكن أتى لي هذا؟
قلت:

إن جهلنا هذا الذي أشرت إليه، أ يكون منك أن تذهب إلى هذا الحد؟
فتقول:

وما طَرَبِي لِمَا رأيتك بِدعةً لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ
قال أبو الندى:

قد تقول: هل لنا عود إلى أبي الطيب مع سيف الدولة في هذه الحقبة التي
انتهى فيها صاحبنا إلى الإخشيدي؟

نعم لنا ذلك فقد اتَّصلَ بأبي الطيب أن قوماً نَعَوْه في مجلس سيف الدولة
بحلب فقال نونيته التي لم يُشدها كافوراً ومطلعها:

بِمِ التعلُّ لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سَكَنُ

قلت :

مهما قسا المرء فلا بد أن تحين منه التفاتة إلى أهله ووطنه ، وها هو ذا أبو الطيب يذكر وطنه ، ولكنه لا يشير إلى بلده الكوفة التي لم نجد لها أي ذكر في شعره .

وما لبث أن غادر هذا الحنين في مطلع قصيدته وراح يفخر بطريقته الخاصة التي يتعالى فيها على الزمان والمكان فقال :

أريد من زمي ذا أن يبلّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمَنُ
لا تلقَ دهرَكَ إلا غير مكترثٍ ما دام يصحبُ فيه روحَكَ البدَنُ
فما يُديمُ سروراً ما سُررتَ به ولا يرُدُّ عليك الفاتتَ الحزنُ
قال أبو الندى :

قد عرضنا في مجلس سابق لمشكلة «أنا» في شعر أبي الطيب . وكان في هذه القصيدة شيئاً من صدى «أنا» يتمثل في سُخره من العشاق والمحبين ، وكأنه نسي نسيه المصنوع والمطبوع فقال :

مما أضرَّ بأهل العِشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا وما عَرَفُوا الدنيا وما فَطَنُوا
تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دمعاً وأنفُسُهُمْ في لَأثرِ كل قبيحٍ وجهُهُ حَسَنُ
تَحَمَّلُوا حَمَلَتُكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فكل بَيْنَ عليٍّ اليومَ مُؤَمِّنُ
ما في هَوادِجِكُمْ من مُهْجَتِي عَوَضَ إنْ مِتُّ شوقاً ولا فيها لها ثَمَنُ

قلت :

وقد بدا منه في هذه القصيدة إعراب عن نوازع غضبه واستيائه من معاملة سيف الدولة في أيامه الأخيرة بحلب . وهذه تفسر عتابه الذي كان أقرب إلى الهجاء ، وفي هذه القصيدة مثل ذاك وهو قوله :

كم قد قُتِلْتُ وكم قد مِتُّ عندكم ثم انتَفَضْتُ فزال القبرُ والكفنُ
قد كان شاهداً دَفَنِي قبلَ قولِهِم جماعة ثم ماتوا قبلَ مَنْ دَفَنُوا

رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرَعَاكُمْ اللَّبَنُ
جَزَاءَ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمْ ضَعْفٌ
وَتَغَضُّبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رَفْدَكُمْ حَتَّى يَعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمَنْنُ

إِلَى أَنْ قَالَ:

سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحَشَةً لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسَنُ
وَأَنْ بُلِيَتْ بَوْدٍ مِثْلٍ وَدُكُّكُمْ فَإِنِّي بِفِرَاقٍ مِثْلِهِ قَمِينُ

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

إِذَا طَفَحَ الْكَأْسُ فَاضَ، وَهَلْ عَلَيَّ شَيْءٌ أَنْ أَعْرِبَ عَمَّا فِي نَفْسِي مِنْ أَلَمِ
مَرِيرٍ؟

قَالَ أَبُو النَّدَى:

فَكَيْفَ أَفْهَمُ، شَيْخِي أَبَا الطَّيِّبِ، عَوْدَتَكَ إِلَى مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بَعْدَ
رَجُوعِكَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْكُوفَةِ حِينَ أَنْفَذَ إِلَيْكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ ابْنَهُ مَعَ هَدِيَّةٍ خَصَّكَ
بِهَا؟

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

اتَّقُوا اللَّهَ فِيَّ، وَلَا تَجْحَدُونِي أَمْرِي، وَلَا تَذْهَبُوا فِي ضَلَالِكُمْ، فَإِنِّي أَمْرٌ
تَعْرِضُ لَهُ أَحْوَالُ عِدَّةٍ، وَقَدْ تَضَطَّرَّهُ تِلْكَ إِلَى أَنْ يَكُونَ غَيْرَ نَفْسِهِ، حَتَّى إِذَا عَادَ
إِلَى هُدُوئِهِ أَخَذَهُ شَيْءٌ أَقْوَى مِنَ النَّدَمِ.

قُلْتُ:

إِلَى أَنْ أَتْلُو قَوْلَهُ - عَزَّ مِنْ قَائِلٍ -: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَأَ
أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ».

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

قَالَ أَبُو النَّدَى:

هَلْ لَأَسْتَاذِي أَبِي الطَّيِّبِ أَنْ يَجْلَوْ عَنِّي هَذَا الضِّيقَ الَّذِي أَشْعُرُ بِهِ وَأَنَا أَقْرَأُ

قولك :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

قد أدرج قولك هذا بعد قولك :

قد كان شاهد دُفني قبل قولهم جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا

وكأني أشعر أنك تنطلق في حكمتك إن حزبك خطب واشتد عليك

فيكون ذلك داعياً للبحث في الناس وأخلاقهم . وكأن هذا قد كان لك في مصر
فقلت المقطوعة النونية ، ولم يكن كافور منها بشيء ، قلت :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

.....

ربما تحسن الصنيع ليالي ولكن تكدر الإحسانا

..... كلما أنبت الزمان قنأة ركب المرء في القنأة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادي فيه وأن تتفاني

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

ولو أن الحياة تبقى لحي لعدونا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُد فمن العجز أن تكون جبانا

قال أبو الطيب :

عللت فأحسن التعليل وأصبت الحقيقة ..

ولكن هل رأيت لدى غيري من أهل صناعة النظم نحواً من هذه

المقطوعة التي تجمع في أبيات عدة هذه الشذرات اللامعات ؟

قلت :

أقسم أن الذي يتهيا لك غير حاصل لدى أصحابك الذين شقوا بهذه

الصناعة العسيرة .

ولكن هل لنا أن نعرض لنونية لك قلتها في كافور لما قتل شبيباً العقيلي في

دمشق سنة ٣٤٨ هـ ، ومطلعها :

عدوك مذمومٌ بكلِّ لسانٍ ولو كانَ من أعدائك القَمَرانِ
قال أبو الندى:

ليس فيها من الفوائد التي فينا حاجة إليها على إحسان صنعتها. لقد مدح
أبو الطيب كافوراً وأشارَ إلى سحق شبيب المتمرّد على طاعته.
ولكن هل لنا في البائية التي قالها في مدحه، وهي عَيْبُ فَوَائِدٍ وظَرْفٍ
وأدب أصيل.

قلت:

لعلها آخر ما أنشد في مصر في مدح كافور!...

قال أبو الندى:

نعم، هي تلك التي مطلعها:

مُنَى كُنْ لي إن البياضَ خِضابُ فيخْفَى بتبييض القرون شبابُ
قلت:

لا حاجة لنا بمقدمة النسيب في هذه القصيدة فهي على حسنّها لا تعرب
عن حرارة لبعدها عن الصدق.

غير أن في القصيدة شيئاً له خطره، وهو قوله:

غنيٌّ عن الأوطان لا يستفزني إلى بَلَدٍ سافَرْتُ عنه إيابُ

فكيف يقول أبو الطيب؟ ألا ينسجم مع قولك:

«وكل مكانٍ يُنبتُ العزَّ طيبُ»

وهذا عجز بيت من قصيدة في مدح كافور وقد عرضنا لها.

قال أبو الطيب:

ما تني صاحبي تعيد عليّ قولتك هذه، أنتّهمني في انتسابي إلى وطن، وأنا
صاحب رأيٍ دون تحقيقه خرط القتاد.

قال أبو الندى .

على رسلك شيخي ، نقول هذا وننسى فخر أبي الطيّب في القصيدة وهو
السلسل النمير .

قلت :

نعم ، هو السلسل النمير ، ولكنه يفصح عن نظر أبي الطيب إلى نفسه
وإلى الناس في علاقاتهم بعضهم ببعض .

قال :

وأصدي فلا أبدي إلى الماء حاجةً وللشمس فوق اليعملات لعباً
ولليسرّ مني موضع لا يناله نديم ولا يُفضي إليه شرابُ
وللخود مني ساعة ثم بيتنا فلاة إلى غير الفضاء تُجَابُ
وما العشق إلا غرّة وطاعة يُعرّض قلب نفسه فيُصابُ
وغير فؤادي للغواني رميّة وغير بناني للزجاج ركابُ

قال أبو الطيب :

كأنك جئت إلى هذه الأبيات لتقول : إن لنسيك صنعة حذقت إنجازها
ولكنه يفتقر للصدق ، وكأنك تقول لي : ألم تقل :
إذا كان مدحُ فالنسيب المقدمُ أكلُ فصيحٍ قال شعراً مُتَمِّمُ

قلت :

نعم : هذه هي الخود عندك تقضي معها ساعة ، ثم تصرمها إلى غير
رجعة ، ألم تقل :

ألا كل ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهيزبي
فالمرأة صاحبة مشية الخيزلي تكون فداءً لديك لماشية الهيزبي وهي
الفرس ، أيصحُّ هذا

قال أبو الندى :

دعنا عن هذا وخذ الفوائد الأخرى كقوله :

أَعَزَّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرَجٌ سَابِحٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ
وَمِنْهَا خَلَصَ إِلَى كَافُورٍ وَالْخُلُوصُ غَيْرُ سَدِيدٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ هَذَا
الْبَيْتِ :

وَبَحْرُ أَبِي الْمُسْكَ الْخِضَمُّ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرِ زَخْرَةٌ وَعُجَابٌ
ثُمَّ يَمْضِي فِي مَدِيحِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ لِأَنَّهُ صَاحِبُ
غَرَضٍ يَرْمِي إِلَيْهِ وَلَا يَصِيبُ ، وَيَبْدُو هَذَا مِنْ قَوْلِهِ :
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الَّذِي أُمَلْتُ مِنْكَ حِجَابٌ
قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

وهذه ثلاثة الأثافي ، فليس لي ما أقول ، وقد كثرت في نصالكما .
قلت : لا أراك إلا أخانا الحميم فطَبَّ نفساً وقرَّ عيناً وأنت في مجلسك .

المجلس التاسع

قال أبو الندى:

آمل أن أكون قد عدنا إلى إخواننا وصفائنا ومودتنا، فليس لنا معك إلا الإخاء الصميم، وإننا ما اجتمعنا إلا على هذا.

فلتتحول الليلة إلى اللامية التي مدحت بها أبا شجاع فاتك المعروف بالمجنون حين انتقل من القيوم إلى مصر، وجاءك يحمل لك هدية سنية، ومطلعها:

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالٌ فليُسعدِ النطقُ إن لم تُسعدِ الحالُ
قلتُ:

لقد أعظمتَ هديتك التي تجاوزت قيمة ما حباك به وقد قيل: إنها ألف دينار.

لقد كانت هديتك «خريدة» كما قلت:

واجز الأمير الذي نعماه فاجئةً بغير قولٍ ونُعمى الناسِ أقوالُ
فربما جَزَت الإحسانَ مُولِيهُ خريدةً من عَذَارَى الحي مكسأُ
ولكنها «خريدة» من الفرّ الذي سَمَوَت به.

ثم مضيت في مديحك فمنحت المدوح صفاته التي عرف بها من شجاعة
في الحرب وكرم لا مزيد عليه، وفنون القول في هذه مفتحة الأبواب لديك.

قال أبو الندى:

ما وقفتَ شيخِي على مسألة عَوَّدَتْنَا أنْ تقفَ على نظائرها، وهي قول شاعرنا:

كفَاتِكِ ودخول الكافِ منقصةٌ كالشمسِ قلتُ وما للشمسِ أمثالُ
قال أبو الطيّب:

تشير إلى «كاف التشبيه» لتقول كما قال صاحبنا شيخك إني استعملت المصطلح اللغوي النحوي، وما أدري أعيباً كان ذاك أم إحساناً؟
قلت:

إحسانك أبا الطيّب، كثير، وليس هذا وغيره معه مما ينقص من عبقريتك التي وُسِّمَتْ بالخلود، ألم تقل في هذه «الخريدة»:

لولا المشقة سادَ الناسُ كلُّهمُ أَلْجَوْدُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتَالُ
وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ طاقَتَهُ ما كُلُّ ماشيةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ
إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرَكُ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانُ وَإِجْمَالُ
ذَكَرُ الْفَتَى عَمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ما قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ
وليتك أبا الطيّب، كنت كما أشرت في البيت الأخير.

قال أبو الندى:

وقد أَحْسَنْتَ في قولك حينَ أشرتَ إلى أن «المجنون» مما نَبَّزَهُ به حَسَّادُهُ
بقولك:

وقد يُلقَّبُهُ «المجنون» حاسِدُهُ إذا اختلَطَنَ وبعَضُ العَقْلِ عُقَالُ
وذلك حينَ تختلط السيوف بالرماح، فأين العقل في هذه المواطن، وهو كالْعُقَالِ الذي يأخذ الدوابَّ بأرجلها فيمنعها المشي.

وأما رثاؤك لأبي شجاع فإحكام وبراعة، ولم يمنحك الحزن من أن تقول:

تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافلٍ عَمَّا مَضَى فيها وما يُتَوَقَّعُ
ولكن يُغَالِطُ في الحقائق نفسَه ويسوِّمُها طَلَبَ المُحَالِ فَتَطْمَعُ

وضربت لذلك مثلاً فقلت:

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بِنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ، مَا يَوْمُهُ، مَا الْمَصْرَعُ
ثُمَّ بِكَيْتِهِ وَعَرَضَتْ لِفَضَائِلِهِ الْجَمَّةُ.

وكانه كان أثيراً بمودتك فقد رثيته وأنت في الكوفة، وعرضت لمسيرك من
مصر في ميمية من فرائدك، مطلعها:

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجَمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمٍ
وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ فِيهَا مِنَ الْأَدَبِ الْعَالِي:

مَا زِلْتُ أَضْحِكُ إِنْ لِي كَلِمًا نَظَرْتُ إِلَى مَنْ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمٍ
أَسِيرَهَا بَيْنَ أَصْنَامٍ أَشَاهَدُهَا وَلَا أَشَاهَدُ فِيهَا عِفَّةَ الصَّنَمِ
حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ
وختمتها أحسن ما يكون الختام فقلت:

أَتَى الزَّمَانَ بِنُوءِهِ فِي شَبِيبَتِهِ فَسَرُّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ
قلت:

لَنَا أَنْ نَتَحَوَّلَ إِلَى شَعْرِهِ الْآخِرِ فِي الْكُوفَةِ بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَيْهَا صَاحِبِنَا فِي
أَخْرِيَاتِ عَمْرِهِ، وَمِنْهُ مَا قَالَهُ يَمْدَحُ أَبَا الْفَوَارِسِ دَلَّيْرَ بْنَ لَشْكُرَوَزَ الَّذِي أَتَى
الْكُوفَةَ لِقِتَالِ الْخَارِجِيِّ الَّذِي نَجَّمَ بِهَا مِنْ بَنِي كِلَابٍ، وَقَدْ انْصَرَفَ الْخَارِجِيُّ
قَبْلَ وَصُولِهِ، فِي قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

كَدَعَوَاكِ كُلُّ يَدْعِي صَحَّةَ الْعَقْلِ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَدْرِي بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلٍ
وقد انصرف شاعرنا إلى نفسه مخاطباً:

تَقُولِينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقُ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحَبَّيْتُهُ تَجِدِي مِثْلِي
مُحِبٌّ كَتَى بِالْبَيْضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وَبِالْحُسْنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ
وَأَيْنَ مِثْلَكَ، أَبَا الطَّيِّبِ، أَحَبَّيْتَ سَيُوفَكَ فَكَنَيْتَ عَنْهَا بِالْبَيْضِ، أَلَمْ يَكُنْ
النَّسِيبُ وَالْغَزَلَ لَدَيْكَ غَيْرَ مَا لَدَى غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنْعَةِ؟

ثم مضيت مطمئناً إلى نفسك وفلسفتك في الدنيا والناس فقلت:
دَرِينِي أَنْلَ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى فَصَعْبُ الْعُلَى فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ بِالسَّهْلِ
تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ لَابِرِ النَّحْلِ
قال أبو الطيب:

هذه حاجتي فهل أدركتموها، أما تكفون عن مُساءلتي ومُشاكستي، في
صغائر لم تكن مني بشيء، ولكنها الضرورات....
قال أبو الندى:

لقد توجَّهْتُ إلى ممدوحك دَلِيرٌ هذا فأحسنْتَ التَّوجُّهَ فقلت:
وَلَسْتُ غَبِيناً لَوْ شَرِبْتُ مِنْيَ بِلَاكِرَامِ دَلِيرِ بْنِ لَشْكَرَوَزٍ لِي
.....
أَرَادَتْ «كَلَابٌ» أَنْ تَفُوزَ بِدَوْلَةٍ لَكِنْ تَرَكْتَ رَغْبَةَ الشُّوْهَاتِ وَالْإِبْلِ
أَبَى رَبُّهَا أَنْ يَتَرَكَ الْوَحْشَ وَحْدَهَا وَأَنْ يُؤْمِنَ الضَّبُّ الْخَبِيثُ مِنَ الْأَكْلِ
قلت:

كَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ، قَدْ شَايَعَ «دَلِيرٌ» فِي قِتَالِهِ لِلخَارِجِيِّ، وَصَاحِبِنَا يَنْزِعُ إِلَى
«عُلُوِّيَّتِهِ» فَهُوَ مَبْغُضٌ لِلخَوَارِجِ، وَلَيْسَ شَيْئاً أَنْ يُنَالُ مِنْهُمْ وَيُقْتَلُوا بِأَيْدِي
الْأَعَاجِمِ.

قال أبو الندى:

أَرَانَا قَدْ أَخَذَتْ مِنَّا الدِّيَارُ الشَّامِيَّةُ كُلَّ مَاخِذٍ فَاسْتَوْعَبَتْ مَجَالِسَنَا وَقَدْ
سَعِدْنَا بِمَا كَانَ لَنَا مِنْ شِعْرِ شَاعِرِنَا، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَتَحَوَّلَ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ. وَذَلِكَ
بَعْدَ أَنْ رَجَعَ أَبُو الطَّيِّبِ إِلَى الْكُوفَةِ فَطَمَحَتْ عَيْنُهُ إِلَى الْمَشْرِقِ.

لقد راسله أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد، وزير ركن
الدولة من أركان فساد إليه وقال يمدحه في قصيدة مطلعها:

بَادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبِكَأَكَ إِنَّ لَمْ يَجِرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
وَيَمُضِي فِي هَذِهِ «المقدمة» من النسيب حتى ينتهي إلى قوله:

أَرْجَانِ أَيُّهَا الْجِيَادُ فَإِنَّهُ عَزَمِي الَّذِي يَذَرُ الْوَشِيحَ مُكْسَرًا

.....
أُمِّي أَبَا الْفَضْلِ الْمِرِّي لِأَيِّمَمَنْ أَجَلٌ بِحَرِّ جَوْهَرَا

فإذا يقول فيه أبو الطيب، وهو يُدرك أَنَّ لكلِّ مُقامٍ مقالاً، لا بدَّ أن يعرض لعلمه وأدبه فيقول:

بأبي وأُمِّي نَاطِقٌ فِي لَفْظِهِ ثَمَنٌ تَبَاعٌ بِهِ الْقُلُوبُ وَتُشْتَرَى
ولا بد أن يقول إنه يعرف حاجة الحرب:

مَنْ لَا تُرِيهِ الْحَرْبُ خَلْقاً مُقْبِلاً فِيهَا وَلَا خَلَقٌ يَرَاهُ مُذْبِراً
خَنْثَى الْفُحُولِ مِنَ الْكِمَاةِ بَصْبَغِهِ مَا يَلْبَسُونَ مِنَ الْحَدِيدِ مُعْضَفَرَا
وكأنِّي أواجهُ الفعل «خَنْثَى» أوَّلَ مَرَّةٍ.

قال أبو الطيب:

هو ما وَلَدَتْهُ مِنْ «خَنْثَى» أَي صَيَّرَهُمْ خَنَائِي أَي بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.
قلت:

ما أَشْجَعَكَ أَبَا الطَّيِّبِ وَمَا أَعْلَمَكَ بِالْعَرَبِيَّةِ

مَدَحَتْ ابْنَ الْعَمِيدِ فَأَجَدَّتَ الْقَوْلَ فَهُوَ أَدِيبٌ لَسِنٌ، وَمُنْشِئٌ بَلِيجٌ وَلِذَلِكَ
قُلْتُ:

قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ وَقَتَ نَبَاتِهِ وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا
.....

وَإِذَا سَكَّتْ فَأَنْتَ أَبْلَغُ خَاطِبٍ قَلَمٌ لَكَ اتَّخَذَ الْأَنَامِلَ مِنْبَرَا
فَدَعَاكَ حُسْدُكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكُوا وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَا

لا أدري كيف لك أن تقول ما لم يقله الخالق لتنتع أحد خلق الله وإن
علا منزلة!

ثم بدا لك أن تفخر فتقول:

من مُبلغ الأعرابِ أتى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا

وَسَمِعْتُ بِطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّراً

ولي أن أجتزئ بقصيدتك هذه عن الدالية التي توجَّهَتْ بها إليه مهنتاً
بالنيروز وتصف السيف الذي قلَّدك إيَّاه، والفَرَسَ وصلة أخرى خصَّك بها.

وكان ابن العميد قد عاب الرائية السابقة، وما كان على حق: كأنه
استقلَّ أن يُنعت برسطاليس والاسكندر من أعظم الأعاجم، الذين يرى ابن
العميد أنه أبرَّ عليهم. ومطلع هذه:

جاء نَـيروزُنا وأنتَ مرادُه ووَرثَ بالذي أرادَ زنادُه

وكأنك أبا الطَّيِّب، تعتذر فتقول:

هل لُعْذري عند الهُمامِ أبي الفضلِ قبولُ سوادُ عيني مِدادُه

قال أبو الطَّيِّب:

نعم، هو ذاك، وما أراني قد تجاوزت الرائية التي لم تُرضِ أبا الفضل في
الإحسان والإجادة.

قال أبو الندى:

فهلا غمضي في هذا العالم الشرقي فترى أبا الطيب وقد ورد عليه كتاب
عضد الدولة يستزيره فقال عند مسيره مودعاً ابن العميد سنة ٣٥٤ هـ قصيدته
الدالية التي مطلعها:

نَسِيتُ وما أنسى عتاباً على الصَّدِّ ولا خَفَرأ زادت به حُمرة الخدِّ
إلى أن يقول:

وَمَنْ يَصْحَبُ اسْمَ ابْنِ العميدِ مُحَمَّدٍ يَسِرُ بَيْنَ أنيابِ الأسودِ والأُسْدِ

ويعضي في الثناء عليه بإظهار محامده وفضائله.

قلتُ:

هل لنا أن نعرض للهائية التي قالها أبو الطيّب في مدح عضد الدولة عند قدومه عليه في شيراز، التي مطلعها:

أَوْهٌ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذَكَرَاهَا
أَوْهٌ لِمَنْ لَا أَرَى مُحَاسِنَهَا وَأَصْلُ وَاهَا وَأَوْهٌ مَرَاهَا
وَيَمْضِي أَبُو الطَّيِّبِ فِي نَسِيهِ نَافِذاً مِنَ النِّسَبِ إِلَى وَصْفِ الْبَادِيَةِ إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَقَدْ رَأَيْتَ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
أَبَا شَجَاعٍ بِفَارَسٍ عَضُدَ الدَّوْلَةِ فَنَاقُضِرُوهَا شَهَنشَاهَا
ثُمَّ يَمْضِي فِي مَدْحِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ فَيُشِيرُ إِلَى جُمْلَةِ فَضَائِلِهِ.

لقد عرفت هذه القصيدة في كتب البلاغة، فقد أخذوا عليها عدم براعة الاستهلال، وكأنَّ البدء بـ «أوه» لا يوفر للقصيدة قوتها وسمتها.

قال أبو الطيب:

لَقَدْ أَحْسَنَ الْفَرَزْدَقُ حِينَ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ الْخَضْرَمِيِّ: «عَلِيٌّ أَنْ أَقُولَ، وَعَلَيْكُمْ مَعْشَرَ النُّحَوِيِّينَ أَنْ تَتَأَوَّلُوا».

كان ذلك حين عاب ابن أبي إسحاق على أبي فراس قوله الذي جاء فيه «عطف مرفوع على منصوب» في بيته:

وَعُضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مُسَحَّتاً أَوْ مَجْلُوقاً

قال أبو الندى:

يُحْيِكَ فِي نَفْسِي مِنْ أَمْرِ شَعْرٍ أَبِي مُحَسَّدٌ أَنَّهُ انْصَرَفَ إِلَى الرِّثَاسَاتِ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ، وَقَدْ نَعْتَهُمُ بِالْمُلُوكِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْكِبَارِ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ مِنْ جِذَمِ عَرَبِيٍّ إِلَّا ابْنُ حَمْدَانَ.

لقد فتشت فيه عن أمير عربي . . من العراق في الكوفة أو البصرة أو بغداد فلم أجده، فأما الخلفاء العباسيون فكأنهم بادوا، وليس لهم عقب.

لا أدري كيف كان ذلك، أهى العلوية حازتك عن بني العباس؟ إذا كان هذا فأى شيء زادك عن الأمراء العرب؟ نعم قرأت شعرك فوجدت فخراً بالعرب، ولكنه فخر بأسرتك وآبائك، وقدمت نفسك عليهم.

لقد قلت:

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وعوث الطريد

لقد أحجمت غير مرة أن أبسط هذا الذي شقيت به ولكنني أخشى ثورتك وغضبك، وإن كنت لا آمن أن أصبح من أعدائك ومهجوئك.

قلت:

ما لك، أبا الندى، لقد سعت إلى إفساد ما بيننا من إخاء وكأنتك سعت إلى نقض هذا المجلس، فهلا تريئت قليلاً حتى تكمل هذه المسيرة في هذا الديوان الذي استحق مني أن أدعوه «مجمع الآداب».

قال أبو الطيب:

ألم أقل إن صاحبنا، أبا الندى، قد أعدته حمى أعدائي التي قاسوا منها فقضت عليهم. أين أولئك الذين ألهم عليّ الوزير المهلبي، والآخرين الذين استأجرهم ابن عباد فخطبوا في روضي، وآبوا بخيبة مريرة ورجعوا بخفي حنين.

قلت:

أما كان عليك أبا الندى أن تعرض في تلاوتك للنونية المرحمة التي قالها في مدح عضد الدولة التي جاء فيها خبر «شعب بوان»، ومطلعها:

مغاني الشَّعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعِبُ جَنَّةٍ لو سار فيها سليمان لساَّر بثرُجُمانٍ
طَبَّتْ فُرسَانُنا والخيلُ حتى خَشِيتُ وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ

لله دَرْكُ، أبا الطيّب، ما كان لك أن تكفي عن الشمس بغير الدنانير،
الأن هذه ذَهَبٌ يشبه شعاع الشمس أم العكس؟

والقَى الشرقُ منها في ثيابي دنانيراً تَفِرُّ من البَنانِ
وقلتَ فيها:

يقولُ بشُعْبِ بَوّانٍ حِصاني أعن هذا يُسار إلى الطعانِ
أبوكم آدمُ سَنُ المعاصي وعَلَّمَكُم مفارقة الجنانِ
ثم انتهيت إلى صاحبك عضد الدولة فقلت:

فقلتُ: إذا رأيتُ أبا شجاع سَلَوْتُ عن العباد وذا المكانِ
فإنَّ الناسَ والدنيا طريقٌ إلى مَنْ ماله في الناس ثانٍ
قال أبو الندى:

ولاميته في عضد الدولة وقد ذكر وقعة مع وهشودان بن محمد الكردي،
ومطلعها:

إثْلِكَ، فلَمّا أيها الظَّلُّ نَبكي وتُرزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ
ومضي هذا النسيب الحزين حتى ينتهي إلى قوله:

وتفرَّقْتُ عنكم كتائبُه إنَّ المِلاحَ خَوادِعُ قُتْلُ
ما كنتِ فاعلةً وضيْفُكُم مَلِكُ الملوكِ وشأنكِ البَحْلُ
وقولك، أبا الطيب: «ملك الملوك» ترجمة لفنّاخسروا وينطلق بك المديح
إلى الإشادة بفضائله وشجاعته ووصف جيشه، وهذا مما يدخل في أدب الحرب،
وهذه الوقعة كانت مادة هذه القصيدة.

قلت:

أشهد أنّ لأبي الطيب ديواناً نستخرجه من ديوانه الكبير في أدب الحرب
وما يتصل به من لوازم.

وتتم هزيمة وهشودان فينبري شاعرنا مادحاً مشيراً إلى ما تمّ من نصر في
قصيدة مطلعها:

أزائرُ يا خيالُ أم عائدُ أم عندَ مولاكَ أُنِّي راقِدُ
يعرض فيها للنصر وهزيمة وهشودان، ويشير إلى ما كان من مآثر هذه
الوقعة، مشيداً بمقدرة عضد الدولة ودهائه ورأيه.

وكانَ أبا الطيب مع عضد الدولة قد أصبح من خواصّه، فهو معه في كل
ما ينوبه.

وتوفيت عمّة عضد الدولة ببغداد فقال يرثيها ويعزيّه بها، في قصيدة
مطلعها:

آخر ما المَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هو الذي أُثِرَ في قلبه
وفيها جاء قوله:

لا بُدَّ لِلإنسانِ من ضَجْعَةٍ لا تَقْلُبُ المَضْجَعَ عن جَنْبِهِ
نحن بنو الموتِ فما بالنا نَعافُ ما لا بُدَّ من شُرْبِهِ
إلى أن يقول:

أستغفر الله لشَخْصٍ مَضَى كان نَداهُ مُنْتَهَى دَنْبِهِ
يريد من حُبِّ العُلَى عَيْشَةً ولا يُريدُ العيشَ من حُبِّهِ

ويُظهر التذكير في ذكره ويستر التأنيث في حُجْبِهِ

وهذا يعني أنها إذا ذُكِرتْ تظهر بذكرها أفعال الرجال، وإن التأنيث منها
مستتر في حجابها.

لله أبوك، أبا الطيب، ما أقساك على المرأة تسلبها كل خير، فهي ضعيفة
أبداً، وهي محتاجة للرجل. فأين أضع نسيبك، وكيف لي أن أفهم اللهجة
المتلهّبة وأنت تشكوها أو تشكو منها أو تستعطفها، أضعيفة وقوية في آن واحد!!

ثم تختم الرثاء بمديح وتعزية لعضد الدولة.

قال أبو الطيب:

كانكما استنَفَذْتما شعري في المديح، وكانكما تنويانِ التحوّل إلى باب آخر.

قلت: نعم خَطَرَ لنا شيء من هذا، وإذا كان ذلك فسيكون مجلسنا القادم في شعر الهجاء.

قال أبو الطيب:

على رسلكما، فلديَّ كافيّة من شعري الذي حرصت عليه.

قال أبو الندى:

لم تفتني الكافيّة وهي مما أحفظه منذ أيام الطلب، وقد قلتها عند وداعك لعضد الدولة في الأول من شعبان سنة ٣٥٣، ومطلعها:

فِدَى لَكَ مِنْ يَقْضَرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَائِكَ إِذْنٌ إِلَّا فِدَاكَ

وقلت بعد ذلك:

ولو قلنا فِدَى لَكَ مَنْ يُسَاوِي دَعَوَنَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ قَلَاكَ
وَأَمَّنَا فِدَاءَكَ كُلَّ نَفْسٍ وَلَوْ كَانَتْ لِمَلِكَةٍ مَلَاكَ

قلت:

لله أبوك، أبا الطيّب، كأنك تَنْسَى نفسك حين تنطلق في المديح، أليس من التزيّد أن تخاطب من ودّعته فتقول: «فِدَى»...

وتؤكد هذا المعنى في بيتين تاليتين، ما أراك إلا فرطت في فنك.

وحرام عليك أن تنال من فنك بهذا التفريط.

أقول هذا لأنني أقرأ في هذه القصيدة شذرات من فن جميل كقولك:

إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ لِدَاءٍ فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ

وفيها أبيات أخرى أصبت فيها وأحسنّت كلّ الإحسان.

ولمّا جلس قادم.

المجلس العاشر

قال أبو الندى:

وهل لنا أن نعرض لفن الهجاء في شعر شاعرنا؟

قلت:

أظن أني أحصيت مقطعاته في الهجاء فوجدتها بُدأً يسيرة بعضها لا يتجاوز البيتين وكثير منها دون العشرة. ولم يكن مهجّوّه إلا شخصاً أقرب إلى المناكير. غير أن هجاءه لكافور، وهجاءه لضبّة ينتظم في قصائد وفيه قسوة.

قال أبو الندى:

ولنعرض لهذه المقطعات إحصاءً فنقول فيها ما بدأ لنا وهي:

ثلاثة أبيات في هجاء القاضي الذهبي الذي لم نعرف عنه إلا ما رأينا من اسمه في الديوان، أولها:

لَمَّا تُسِبَّتْ فَكُنْتُ ابناً لغير أبٍ ثم اخْتُبِرْتُ فلم ترجعْ إلى أدبٍ

وأربعة أبيات يهجو بها سواراً الديلمي، أولها:

بقيّة قوم آذَنُوا ببوارٍ وأنضاء أسفار كُشِرِبَ عُقار

ورابعها:

ولا تُنكِرا عَضَفَ الرياح فإِثْها قَرَى كُلَّ ضَيْفٍ بات عند سِوارٍ

وأول قصيدة في هجاء أحد هؤلاء المجاهيل كانت في هجاء الأعور بن

كَرَّوس، ومطلعها:

عذيري من عذارى من أمور سَكَنَ جوانحي بَدَلَ الخدور
وقال فيها:

فيا ابن كَرَّوسِ يا نصف أعمى وإن تفخَّرَ فيا نصف البصير

.....
فلو كنت امرأً يُهَجَى هَجُونَا ولكن ضاق فِتر عن مسير

وأربعة أبيات أُشير إلى أنها في هجاء قوم، أولها:

أما تَكُمُ من قبل موتكُمُ الجهلُ وجَرُّكُمُ من خِفَّةِ بَكُمُ النَّمْلُ

وأحد عشر بيتاً في هجاء ابن كَيْغَلَع حين بلغه أن غلامه قتلوه، ومطلعها:

قالوا لنا: ماتَ إسحقُ فقلتُ لهم هذا الدواء الذي يشفي من الحُمَقِ

وثلاثة أبيات في هجاء أبي الفرج السامريّ أولها:

أسامريّ ضحكة كل راءٍ فَطِنْتَ وكنتَ أغبى الأغبياءِ

أما هجاؤه لكافور فيكشف عن أسلوبه في الهجاء، فهو قاس لاذع، وهو

في أكثر من قصيدة، ومنه ما كان في مقطعات. إن هذا القدر من الهجاء ينم

على ما كان في نفسه من ألم وخيبة أمل.

قلت:

إن قصيدته الدالية تغني عن هذا القدر من الهجاء، لاشتغالها على فوائد

أخرى ما خلا الهجاء.

قال أبو الطيب:

إن في داليتي بكاء على نفسي وعلى ما صنعت بنفسي، وما أظن إلا أنكم

ستأتون عليها.

قال أبو الندى:

إن شعره في هجاء كافور هو:

عشرة أبيات أولها:

أريك الرضى لو أَخَفَّتِ النفسُ خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
وجاء فيها:

فإن كنتُ لا خيراً أَفَدْتُ فلإنني أَفَدْتُ بَلَحْظِي مِشْفَرِيكَ المَلاهيا
وسبعة أبيات أخرى أولها:

من آية الطُّرْقِ يَأْتِي مثلك الكَرَمَ أين المَحاِجُمُ يا كافور والجَلَمُ
وفيهما:

ساداتُ كُلِّ أناسٍ من نُفوسِهِم وسادةُ المسلمين الأعبُدُ القَزَمُ
أغايَةُ الدين أن تُخَفُّوا شَوارِبَكُم يا أُمَّةً ضَحِكتُ من جَهلِها الأُمَمُ
وعشرة أبيات أخرى أولها:

أما في هذه الدنيا كريم تزول به عن القلب الهمومُ
وفيهما يقول:

حَصَلْتُ بأَرْضِ مِصرَ على عبيدٍ كأنَّ الحُرَّ بينهم يَتيمُ
وتسعة أبيات أولها:

أَنوَكُ من عَبْدٍ ومن عِرْسِهِ من حَكَمَ العَبْدَ على نَفْسِهِ
قلت:

حسبنا أبا الندى ما ذَكَرْتَ وما جاء به إحصاؤُك، ولنتنقل إلى الدالية
الكبرى التي مطلعها:

عيد بأية حالٍ عُدْتُ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ
وكان أبا الطيب عَنَى أبياتها العشرة الأولى التي قال عنها: إنها من نفسه،
وأن فيها ما فيها مما يعرب عن أساه ومرارته وخيبة أمله: ومنها:

أما الأحبَّة فالبيداء دونهم فليَتَكَ دونَكَ بيداً دونها بيدُ
.....

.....
لم يترك الدهر من قلبي ولا كيدي شيأ تُتيمه عيْن ولا جيد
يا ساقِييْ أَخْمَرُ في كؤوسِكما أم في كؤوسِكما هَمٌ وتسهيْدُ
أصخرة أنا ما لي لا تُحرِّكُنِي هذي المدام ولا هذي الأغاريْدُ
حتى إذا انتقل إلى الهجاء جاء بالسخرية اللاذعة والكلم القارص ومنه
قوله:

أكلما اغتالَ عبدُ السَّوءِ سيِّدَه أو خانَه فله في مِصْرَ تمهيدُ
صار الخَصِيُّ إمامَ الأبقِيْنَ بها فالحرُّ مُستَعْبِدٌ والعَبْدُ معبودُ
.....
لا تشتَرِ العَبْدَ إلَّا والعَصَا معه إن العبيد لأنجاسُ مناكيدُ
وفيها ما هو أقسى من ذلك، وقد اختار كلمه المناسب لهذه المعاني، وهي
كلها نبز وتحقير وشتائم.

قال أبو الندى:

إن أمرها معروف، وهي على كل لسان، وأذكر أني منذ أيام الطلب كنت
أستعذِبُ هذه الشتائم أرَدَّدها ويردِّدها معي أصحابي: وفيها:
وإنَّ ذا الأسودَ المَثقوبَ مِشفَرُهُ تُطيعه ذي العَضاريطُ الرعايدُ
قال أبو الطيب:
ولكني لم أذكر كلمة بذئته تجرح الحياء.

قلت:

ولكنك أتيت بكل كلم جارح بذيء في هجاء ضَبَّة وسنأتي عليها.

قال أبو الندى:

على رِسلِكُم، ألا ترون أن المقصورة قد خص كافوراً بجزء يسير منها
فهجاه على طريقته في السخرية، فقال:
وماذا بِمِصْرَ من المضحكات ولكنَّه ضَحِكُ كالبُكا

بها نَبَطِيٌّ من أهل السَّوَادِ يُدْرَسُ أنسابَ أهل الفِلا
وأَسودَ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقالُ له أنتَ بدرُ الدُّجَى
قلت:

رعاكَ اللهُ، أبا الطَّيِّبِ، خَشِيتُ أن يُقالَ لك: كيفَ مَدَحَتَه من قبل
فأَسْرَفْتَ وفَرُطْتَ؟ فأجبتُ هذا السَّائِلَ المَعْتَرِضَ بقولِكَ:

وَشِعِرٌ مَدَحْتُ بِهِ الْكَرْكَدَنَ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحاً لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ وَأَمَّا بَزَقٌ رِياحٍ فِلا
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
قال أبو الندى:

ولنَجْتَزِيَ بهذا عما بقي من أبياته في مقطعاته في هجاء كافور.
ومن مَهْجَوِيهِ ضَبَّةُ بن يَزِيدَ العُتَيْبِيِّ الذي هجاه بواحدة لا تليق لما ورد
فيها من لفظ بذيء.

ألا توافقني أبا الطيب على قولي؟

قال أبو الطيب:

لك أن تقول ذلك.

قلت:

وإني لأَجَلِّ مجلسنا هذا عن ألفاظ تتجاوز الأدب وتدخل في ألفاظ الهُجَر
والفحش.

ومطلع القصيدة:

ما أنصفَ القومُ ضَبَّةً وأُمَّهُ الطُّرْطُوبَةُ

وليس فينا حاجة إلى أن ندخل في هذا.

قال أبو الندى:

وقد يكون مفيداً أن نشير إلى أن أبا الطيّب كان قد مرّ في طريقه على
إسحاق بن الأعور بن إبراهيم بن كيغَلغ، وكان محافظاً على طريق طرابلس،
فطلب منه أن يمدحه فاحتجّ بأنه حلّف أن لا يمدح أحداً في الطريق، فاعتاقه
إسحاق عن طريقه، ولما فارقه قال يهجوّه ويمدح أبا العشائر في قصيدة مطلعها:
لَهَوَى النَفُوسِ سَرِيرَةً لَا تُعْلَمُ عَرَضاً نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ
ومضي بعد ذلك في نسيه في أبيات أربعة ينطلق بعدها في أقواله الشهيرة
التي عدّت من القول المأثور وهي:

وَالهَمَّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَثُشِيبُ نَاصِيَةِ الصَّبِيِّ وَتَهْرِمُ
ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَتَّعِمُ
ومنها:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
وَالظَلَمُ مِنْ شِيمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلَمُ
ومما ورد فيها من الهجاء لإسحاق بن الأعور قوله:

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلٌ مِنْ لَا يَرْعَوِي عَنْ جَهْلِهِ وَخَطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ
وَجَفْوَنُهُ مَا تَسْتَقِرُّ كَأَنَّمَا مَطْرُوفَةٌ أَوْ فُتَّ فِيهَا حِضْرُمُ
وَإِذَا أَشَارَ مُحَدِّثًا فَكَأَنَّهُ قَرْدٌ يَقْهَقُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطُمُ
وإلى مجلس قادم.

المجلس الحادي عشر

قال أبو الندى:

لقد أفضنا في باب المديح الذي شغل جلّ الديوان، ثم عطفنا على الجزء
اليسير منه في باب الهجاء. ولم يبق لنا منه إلا بضع قصائد قالها أبو الطيّب في
صباه قبل أن يواجه الخطوب في دنياه.

قلت:

نعم هي بضع قصائد كنا قد عرضنا لبعضها فيما يجزينا من فوائد،
والدالية الخفيفة إحداها تلك التي حفلت «بشطحاته» وغيرها.
فما ذا عندك منها ثانية.

قال أبو الندى:

لعلّ شعر أبي الطيب في صباه باب خاص أدعوه باب الأصالة ذلك أنه
إعراب عن نفسه وآلامها. وقد يقال: أيّ الآلام هذه؟

قال أبو الطيب:

هي الآلام التي فتحت عينيّ على لظاها، ألم تشيروا إلى أني كنت أشعر
بالحرمان، وأنّي من أهل بيت ظلموا وسلب حقّهم، وأي خطب أفدح من هذا؟

قلت:

نعم. إن فخره في هذه الدالية صدّى لما يتوجّع منه، ألم يقل:
أين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيشٍ مُعجّل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي

أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوسٍ وهمتي في سُعود
ويندرج في هذا الجزء من شعره الميمية التي قالها في صباه ومطلعها:
صَيْفٌ أَلَمَ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ السيف أحسنُ فعلاً منه باللَّمَمِ
التي جاء فيها بعد أن مهَّد بشيء من النسب:

ليس التعلُّلُ بالأمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمي
ولا أظنَّ بناتِ الدهرِ تتركُنني حتى تسدَّ عليها طُرُقها هيمي
لَمْ الليالي التي أخنْتُ على جِدَّتِي بِرُقَّةِ الحالِ واعذرني ولا تَلَمِ
أَرَى أناساً ومحصولي على غَنَمٍ وذَكَرَ جُودٍ ومحصولي على الكلمِ
.....
لقد تَصَبَّرْتُ حتى لَاتَ مُضْطَرٍ فالآن أقحَمُ حتى لَاتَ مُقْتَحَمِ

إلى أن يقول:

رِدِّي جِيَاضَ الرَّدَى يا نفسُ وأتركي جِيَاضَ خوفِ الرَّدَى للشاء والنَّعمِ
إنْ لم أَدْرِكْ على الأرماحِ سائلةً فلا دُعَيْتُ ابنَ أُمِّ المجدِ والكُرمِ

قال أبو الندى:

وأين نحن من الميمية التي قالها وقد نزلت به الحُتمى بمصر فوصفها
ووصف حاله وتوجَّع أحرَّ ما يكون الوجعُ، وهو يعاني في مقامه مما كان يشقى به
من معاملة كافور إِيَّاه، ومطلعها:

ملوئُكُما.. يجِلُّ عن الملامِ ووَقَّعَ فَعَالِهِ فوق الكلامِ

ثم قال:

ذُراني والفَلَاةُ بلا دَليْلِ ووَجْهِي والهَجِيرَ بلا لثامِ
فإني أستريح بذِي وهذا وأتَعَبُ بالإناخَةِ والمقامِ
عيونُ رواحلي إنْ جِرْتُ عيني وكلُّ بُغامِ رازحةٍ بُغامِي
فَقَدْ أَرَدُ المِياةَ بغيرِ هادٍ سِوَى عَدِّي لها برقُ الغَمَامِ
يُذِمُّ لَهْجَتِي رَبِّي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذِمَامِ

إلى أن يقول:

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَائِي تَحُبُّ بِيَ الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَّنِي الْفَرَاشَ وَكَانَ جَنْبِي يَمْلُ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ
قَلِيلٌ عَائِدِي سَقَمٌ فَوَادِي كَثِيرٌ حَاسِدِي صَعْبٌ مَرَامِي

إلى أن يقول في وصف الحمى:

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي

إلى آخر هذا الوصف الدقيق، والقصيدة مشهورة.

قلت:

ولعل في هذا الباب ما أشار إليه أبو الطيب من أن شطراً من داليتيه في هجاء كافور، هي من هذا الذي نحن فيه.

المجلس الثاني عشر

قال أبو الندى:

ما زال شيء كثير لم نعرض له في مجالسنا هذه، فديوان شاعرنا عَيْيَّة
فوائد، لقد وجد فيه المعاصرون بين منصف وحاقد حاجتهم. وسيبقى هذا
الديوان مظنة لدرس جادّ، وسيقول فيه الناقدون من أهل النصفّة والعدل،
وغيرهم من الحساد كلمتهم بل كلامهم فيه.

قلت:

وأكبر ظني أنّ فريق المنصفين من أهل العلم سيغلب أهل الحقد
والضعينة، ألم تر أنه قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاهم ويختصم

وكأنّ أبا الطيّب قد وثق من تراثه وشرفه فقال:

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريّا وذان الشئب والهَرَمُ

قال أبو الطيب:

أحسنتُ وأصبتُما، فما عندكما الليلة من بضاعة تُعيننا على ما نحن فيه من
ليلنا الطويل.

قلت:

لعلك، أبا الطيب، من أحسن من تصدّى لليل في طوله وما يُثيره من

همّ ناصب وذكر تشقى به وتنصب، ألم تقل:
لياليّ بعد الظاعنين شُكُوْلُ طوال، وليل العاشقين طويل

قال أبو الندى:

قلت في نفسي: هل يضيق بنا ديوان أبي محسّد، ونحسب أننا انتهينا من
الكلام على شعره؟ ما أظن ذلك، وبيننا أنا في بعض حيرتي بدا لي أن يكون
مجلسنا على أبي الطيّب ورأيه في «الناس».

قال أبو الطيّب:

ما أدهاك، أبا الندى، أردتها حامية الوطيس فهاتها، إن وعائي ليحوي
هذا وغيره، وستجدان مما قلته في الناس مادة هذه الليلة، فاتّق الله ولا يذهب
بك ذكاؤك إلى خذلاني، وأنا صفيّك وصاحبك.

قلت:

لا عليك، أبا الطيّب، وهل لنا حاجة إلّا ما ترضاه لنفسك؟
قل يا أبا الندى ما بدا لك في الأمر فإني أرى فيك الليلة امرأً طُلعةً إلى
الجديد من القول.

قال أبو الندى:

لقد عرفنا أبا الطيّب كما عرّفه أعداؤه وحسّاده، من أفراد الدهر، ألمعيّاً
تجاوز حدود الألمعية، ومن هنا فهو مستهدف محاسب محسود. ولهذا لقي من
هؤلاء جميعاً الأمرين، فهو أبداً يحقرهم وينال منهم ولذا فهو يقول:

ومن عرّف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رُحمه غير راحم
فليس بمرحومٍ إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم.

قلت:

وقد يكون صاحب حق أن ينطلق في فلسفته هذه بادئاً بالشكّ بالناس
ومنتهياً إلى شبه قناعة أنهم أعداء أهل الفضل، قال - لا فضّ فوه -:

فَوَاذَ مَا تُسَلِّيهِ أَلْدَامُ وَعَمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللَّثَامُ
وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّتُ ضِخَامُ
وهو يدرك أن أهل الخدق والخبث سيردون عليه لأنه من الناس، يدرك
هذا فينبري قائلاً:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرِّغَامُ
فَيُجَرِّدُ نَفْسَهُ عَنْهُمْ، وَأَنَّى لَهُ هَذَا؟
ويقول:

أَرَانَبُ غَيْرِ أَنَّهُمْ مَلُوكٌ مُفْتَحَةٌ عِيُونُهُمْ نِيَامُ
لله أبوك أبا محسد، لم تستش من الملوكة.
قال أبو الطيب:

سيقول صاحبنا أبو الندى، إذن كيف تقرب من الملوكة ومدحهم بأكثر مما
لهم؟

قال أبو الندى:
لعلك أبا الطيب تتأسى بقوله - عز من قائل -: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا أُذَلَّةً﴾.
ولكنك امرؤ في هذه الدنيا، وأهل الدنيا تستثيرهم نوازعهم وغاياتهم
فأين هم من حكمة الذكر الحكيم؟!

قلت:
أحسن، أبا الندى، لقد فتشت عن الذريعة فوجدتها ومنحتني سعة في
القول.

ألم يشطح أبو محسد فيخاطب شجاع بن محمد الطائي المنبجي، أحد
مدحويه فينعتة بالملك، وأين هو من «الملوكية» ويقول:
إلى سيّد لو بشر الله أمةً بغير نبيّ بشرتنا به الرُّسُلُ

إلى القابض الأرواح والضيغم الذي تُحدِّثُ عن وَفَاتِهِ الخيلُ والرَّجُلُ
تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال أبو الطيب:

أتعود إلى شِنْشِنَتِكَ فَتُثَمِّنِي بالإلحاد كما اتَّهَمَنِي غَيْرُكَ؟

قلتُ:

لا عليك، وليكن لي من ساحتك ورجاحة عقلك وسعة صدرك ما
أستطيع معه أن أجول في هذا الشأن. إني لأدرك أن الساعة أَمَسَ غير الساعة
في يومك، وإنك امرؤ تنظر إلى البعيد البعيد، فهأنَّ عليك أن قلتَ ما قلتَ.
ومن هنا فإني لأجد الطريق فأفهم قولك:

ولا تحسبنَّ المجدَ زَقاً وقينةً فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البكرُ
وتضريبُ أعناق الملوك وأن تُرى لك الهبوات السود والعسكرُ المجرُّ

ولنعد إلى صلتك بالناس فنجدك تنفي وجود الصديق فتقول:

خَلِيلُكَ أَنْتَ لَا مَنَ قَلْتَ خَلِيَّ وَإِنْ كَثُرَ التَّجْمُلُ وَالْكَلَامُ

وكأنَّ الناسَ هم سواد الطغام الذين شَبَّهْتَهُم بالدنيا فقلت:

وشبه الشيءَ منجذبٌ إليه وأشبهنا بدُنْيَانَا الطَّغَامُ

قال أبو الطيب:

وهل في ذلك شك فهي «دنيا» أدركها غيري فقال فيها أوائلنا أم دَفَرُ،
وأنت أعلم بالدَّفَرِ والدَّفَرِ... وقالوا فيها في كُنَاهُمْ غير هذا.

قال أبو الندى:

لقد خَلَوْتَ إلى صاحبك، شيعي، تريد أن تدَّخره لنفسك وتجعلانِ مَيَّ
مناوئاً كسائر الشَّاةِ الحَسَادِ.

لا، لست منهم، ولكني طالب أبصر الشيء من وجوهه كافة فأرى

شاعري الذي أوثره بمودتي وإكباري ينعت كافوراً «المليك» ثم يزيد فيه العلم فيقول:

«المليك الأستاذ».

ثم أجدني أمام قولك:

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا
وأن ذا الأسود المثقوب مشفره
جوعان يأكل من زادي ويمسكني
يُسِيء بي فيه عبد وهو محمود
وأن مثل أبي البيضاء موجود
تطيعه ذي العضاريط الرعايد
لكي يقال عظيم القدر مقصود

إلى أن يقول:

من علم الأسود المخصي مكرمة
أم أذنه في يد النحاس دامية
أولى اللثام كويفير بمعذرة
وذاك أن الفحول البيض عاجزة
أقومه البيض أم آباؤه الصيّد
أم قدره وهو بالفلسين مردود
في كل لؤم وبعض العذر تفنيّد
عن الجميل فكيف الخضية السود

وأنا أقول: كيف كان ذلك!

قلت:

ومن علي بن ابراهيم التنوخي حتى يقال له:

وإنما الناس بالملوك وما تُفلح عُربُ ملوكها عجم

ومتى كان قدر الناس يُقدر بالملوك، وهل نسينا خبر الملوك في شعر
صاحبنا أبي محسد؟ وهل كان هذا التنوخي ملكاً؟ ومن عبد الرحمن بن المبارك
الأنطاكي من ممدوحيك، أبا محسد، أمليك هو، ومتى كان؟

وهل يجوز منك أن تقول:

إنما الناس حيث أنت وما الناس بناسٍ في موضع منك خال.

قال أبو الطيب:

لقد أخذتُما عليَّ شيئاً لم أقصد إليه، فالناس في قولي كلهم الحساد
الأعداء، وهل تريان أني أقصد كل الناس؟ وذلك يعني أني أضعتُ عقلي
وغامت بصيرتي، فلم أدرك الثوابت من الحقائق. وهل يصح أني أقصد عامة
الناس في قولي:

واقفاً تحتَ أحمصي قَدَرِ نفسي واقفاً تحتَ أحمصي الأنامُ
قلتُ:

نعم لك أن تهجو البُداة الجُناة من الأعراب فتقول:

وَمُذْقِعِينَ بِسُبُوتٍ صَحِبَتْهُمْ عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ
خُرَابٍ بَادِيَةٍ غَرَّتْهُمُ بِطَوْنُهُمْ مَكْنُ الصُّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِلَا تَمَنِ
نعم، لك أن تقول ذلك، ولكن كيف لي أن أدرك قولك:

لَا أَقْترِي بَلَدًا إِلَّا عَلَى غَرَرٍ وَلَا أُمَرَّ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَغِنٍ
وَلَمْ كَانَ هَذَا، وَلَمْ الاضْطَغَانُ؟
ثم قلتُ:

ولا أعاشِر من أملاكهم «ملكاً» إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثْنٍ
على رسلك أبا الطيب، كيف نسيت الملوك الذين جعلتهم من القديسين؟
قال أبو الندى:

ليس لي سبيل أن أجد لك عذراً وأنت تقول لأحد من ممدوحيك المناكير
وهو سعيد بن عبدالله بن الحسن الأنطاكي:

لَوْ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانَا
اتَّقِ اللَّهَ، أبا الطيب، في نفسك وفي «الناس»، أيجوز هذا؟

وصاحبك الممدوح أخ للقاضي أبا الفضل أحمد بن عبدالله بن الحسن
الأنطاكي، وهل كان هذا القاضي ملكاً؟

ما أسخاك، بل ما أقساك؟

قال أبو الطيب:

لو لقيتُما من الخطوب مثل ما امْتُحِنْتُ به لكان لأحدكما أن يقول ما قلت،
ولو أدركتُما ذلك لكان لي عندكما سعة من العذر ولا أقول المغفرة، وكيف لا
أقول:

أذُمُّ إلى هذا الزمان أهَيْلَه فاعلمهم قَدَمٌ وأحزمُهم وَغَدٌ
وأكرمُهم كَلْبٌ وأبصرُهم عَمٍ وأسهدُهم فَهَدٌ وأشجعُهم قِرْدٌ
قلت:

لقد أحسنتَ أبا الطيب الشتم فلزمت التصغير تحقيراً فقلت: «أهَيْلَه»،
كما قُلْتُ في أخرى:

أفي كلِّ يوم تحت ضِئبي «شُويعرٌ»؟

قال أبو الطيب:

وليس كل التصغير لديّ تحقيراً، ذلك أن بعض ما ورد مصغراً شيء
تقتضيه الصنعة، ألا ترى قولي:

أحَادٌ أم سُداسٌ في أحادٍ لُيِّلَتنا المنوطة بالتنادي
إن تصغيري «لليلة» في هذا المطلع ليس من باب التحقير، إذ ليس هو
نظير التصغير لـ «شاعر» في قولي:

«أفي كلِّ يوم تحت ضِئبي «شُويعرٌ»؟

وقد ذهب إلى هذا اللغويون والنحاة فأشاروا إلى ما صُغِرَ للتعظيم
والتهويل فقالوا: «دُوسية» وكأنهم أرادوا إعظام «الداهوية».

فارسيٌّ له من المجدِ تاجٌ كان من جَوْهرٍ على أبروازٍ
كأنك صيرتَ هذا الكاتب الذي ليس في العير ولا في النفير «ملكاً».

فكيف لي أن أدرك قولك:

ولَئِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ غُرْبُ مَلُوكِهَا عَجَمُ
كيف جاز هذا؟

قلت:

ما كان لي أن أقبل من صاحبي أبي الطيب الشاعر أن يقول في أبي
العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي:
أرى الناس الظلامَ وأنتَ نورٌ ولآيٍ منهمُ لآليكَ عاشِرُ
ومثل هذا قوله في قصيدة رثى بها أبا شجاع فاتك:
والناس أنزل في زمانك منزلاً من أن تعايِشَهم وقدركَ أرفعُ
وكيف لا يَسْنُوْكَ، أبا الطيب، حاسدوك وأنت تقول في الناس:
أنا من جميع الناس أطيْبُ منزلاً وأسرُّ راحلةً وأربَحُ مَتَجَرا
قال أبو الندى:

إي والله، أنت أربَحُ متَجراً، أفيرضيك هذا، أو أنك سَعَيْتَ إليه؟
أبعد هذا تريد أن يُحسِنَ الناس إليك، وقد حَقَرْتَهُمْ وَسَفَّهْتَهُمْ؟

المجلس الثالث عشر

قال أبو الندى:

إن الكلام على «الناس» في شعر أبي الطيب يقودنا إلى الكلام على الحسد
والحساد الكاشحين أيضاً، فهل لكما أن نعرض لهذا، وهل يستحق أن يكون
ذلك شغل مجلسنا الليلة؟

قلتُ:

كأنك سبقتني، أبا الندى، إلى هذا، أليس هذا تنمة للحديث عن
الناس؟

قال أبو الطيب:

كأنكما تجدان أني أكثر من الكلام على الحسد والحساد، أليس ذلك في
الإنسان طبعاً، وهل يخلو مجتمع من حاسد ومحسود؟
وهل كنت بدعاً بين شعراء العربية في هذا؟

قلتُ:

نعم، لا نجد في شعراء العربية شاعراً عرض لهذا على النحو الذي
عرضت أنت. لكأنك جعلت الحياة كالحلة الوجه، والعيش شظفاً بما تحدثت عن
الحساد.

وقد راجعت ديوان حبيب بن أوس فلم أجد فيه إلا قوله:
وإذا أراد الله نشر فضيلة طويّت أتاح لها لسان حسود

قال أبو الندى:

لو أذنتها لي أن أتلو عليكم ما قاله أبو الطيب في الحسد لكان لنا منه
طائفة وافية.

قلت:

دونك ذلك، ولتكن تلاوتك استقراء لما في الديوان من هذا.

قال أبو الندى:

قال أبو الطيب في مدحه للحسين بن اسحاق التنوخي، وقد كان قوم قد
هَجَّوه ونحلوا الهجاء إلى أبي الطيب، فكتب إليه يعاتبه، فكتب أبو الطيب إليه
مادحاً، وقد جاء في قصيدته:

تُطِيعُ الحاسدين وأنتَ مرءٌ جُعِلْتُ فِداءه وهُمُ فدائي
قال أبو الطيب:

وهل في هذا شيء، أليسوا حساداً أرادوا أن يوقعوا بيني وبين الحسين
التنوخي؟ وكيف أقول: إن لم أشر إلى حسدهم؟
قلت:

إننا لم نعترض على ما كان منك، وأنت صاحب حق تدفع عن نفسك ما
أراده قوم سوء حَقّاً عليك ونكاية بك. ولكننا نقول: إن الحسد في شعرك أمر
يدعوننا نحن أهل الدرس، إلى أن نقول فيه شيئاً.

قال أبو الندى:

وجاء في مدح أبي الطيب لعلي بن ابراهيم التنوخي قوله:
وكيف لا يُحَسِّدَ امرؤ عَلمَ له على كل هامة قَدَم
قلت:

نعم، إنك، أبا الطيب، محسود لأنك المعّي، وصاحب الألمعية غرض
للناس ولا سيما أهل المعرفة منهم.

أريد أن أقول: إن حسادك هم الشعراء والعلماء وذوو الفضل الذين وصلوا إلى أصحاب الرئاسات والمتقدمين من السادة السراة، والأمراء والملوك. وقد أشرت إلى هذا بقولك هذا.

قال أبو الندى:

وجاء مثل هذا في قصيدتك التي مدحت بها علي بن منصور الحاجب، وذلك في قولك:

لَيْتَكَ عَيْظَ الحاسدين الراتبِ إِنَّا لَنَخْبِرُ من يَدَيْكَ عجائباً
قلت:

أظن أن في استقرائنا قد جاء شيء غير هذا، فما لك توقفت عن تلاوتك؟
قال أبو الندى:

حسبت أنك قد ضجرت من هذه الناذج، وخشيت أن يكون أبو محسد شاعرنا الكبير قد ضاق صدره.

قال أبو الطيب:

إني لأقبل مشاكستكم هذه لأنها تخرج من أهل علم أتوق إلى أن أستمع إلى حديثهم في.

قال أبو الندى:

وجاء في قصيدة مدح بها أبو الطيب علي بن محمد بن سيّار بن مكرم التميمي قوله:

وما ليلٌ بأطول من نهارٍ يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسّادي مشوبا
وجاء في قصيدة أخرى في مدح ممدوحه هذا أيضاً قوله:

ويحتقرُ الحُسّادَ عن ذكرِهِ لهم كأنَّهُم في الخلقِ ما خُلِقوا بَعْدُ

قلتُ:

أتقول، أبا الطيب، إنِّي كغيري من الشعراء في هذا الشأن؟

قال أبو الندى:

على رِسْلِكِما ولا تتعجلا ففي خزانتي مادة أخرى.

لقد كان من هذا قول أبي الطيب في سيف الدولة:

وما كَمَدُ الحُسَّادِ شيءَ قَصَدْتُهُ ولكنَّه من يزحَمَ البحرَ يَغْرِقِ

ومثله في قصيدة فيه مادحاً قوله:

سوى وَجَعَ الحُسَّادِ داوٍ فَإِنَّه إذا حَلَّ في قَلْبٍ فليس يحولُ

قال أبو الطيب:

وهل بعد هذا كله شيء من هذا؟

قال أبو الندى:

ألا تتذكر داليتك المحجلة تهنيء فيها سيف الدولة بعيد الأضحى، لقد

قلت فيها:

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عني بَكْبَتِهِمْ فَأَنْتَ الذي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّاداً

قلت:

وهذا إقرار بأن المتعاصرين من أهل المعرفة قوم متحاسدون.

قال أبو الندى:

لئن صَبَرْتُمْ على هذا العناء لأزِيدَنَّكُمْ.

قلت:

وكيف لا نصبر، وقد يحلو الجدُّ على عسره.

قال أبو الندى:

وفي إحدى قصائده في مدح كافور جاء قوله :
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالةً أقيمُ الشقا فيها مقامَ التَّعْمُرِ
وفي أخرى قالها وقد حدثت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم
مدة ثم اصطلحا، جاء قوله في مطلع القصيدة :
حَسَمَ الصُّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعادي وأذاعَتْهُ ألسُنُ الحَسَادِ
وثالثة في مدح كافور جاء قوله :
وأظلمُ أهلِ الظلمِ من بات حاسداً كُنْ باتٌ في نَعْمائه يَتَقَلَّبُ
قلت :

وما زال في كنانتك بعض هذه السهام ؟..
قال أبو الندى :

نعم ، ذلك في قصيدته الشاكية حين نالت أبا الطيّب الحمّي في مصر ،
والقصيدة من روائع شاعرنا ، وهو قوله :
قليل عائدي سَقِمُ فؤادي كثيرٌ حاسدي صَعْبُ مرامي
أظنني قد أطلتُ عليكم في هذا الذي ذكرته ، ولكني آثرت العافية ،
ولديّ منه شيء آخر ، وفي الذي أوردته كفاية ومقنع .
قلتُ :

نعم ، في الذي ذكرته أبا الندى ، مقنع ، وهو يُشعرنا أنّ أبا الطيب امرؤ
مستهدف ، وهو على حق في توجيه سهامه إلى أعدائه وجُلُهم من هؤلاء الحساد .
والى مجلس قادم .

المجلس الرابع عشر

قال أبو الندى:

لقد كثر ذكر أبي الطيّب في كتب اللغة فكان في شواهد أهل اللغة شيء من شعره. وقد عرفنا ذلك منذ أيام الطلب ووقفنا على شواهد بلاغية من شعره.

لقد استشهد بشعره على طائفة من أبواب البلاغة كالتشبيه والاستعارة، وفيهما التشبيه بأنواعه، والاستعارة بأنواعها. وأنت تجد شواهد من شعره في الكناية والأنواع البديعية.

وقد استشهدوا على فصاحة الكلمة وجنوحها عن الفصاحة بشعره أيضاً. وفي شعره نكات لغوية تدرج في باب الأبنية، وأخرى تدخل في تطور الدلالة والاستعمال، ولا تعدم أن تجد لأبي الطيب مواد للنحاة فيها قول.

قلت:

كنت أود أن نختم أحاديثنا هذه عن هذه المشكلات اللغوية. وأنت واجد، كما أشرت، طائفة من الاستعارات التمثيلية في شعره، وهي تلك الأبيات التي يستشهد بها كقوله:

ومن يك ذا فمٍ مَرٍّ مريضٍ يحذُّ مُرّاً به الماء الزلالا

والتشبيه الضمني كقوله:

كرمٌ تبين في صفاتك مائلاً وبين عتق الخيل من أصواتها

وكقوله :

فإنَّ تَكْ تغلب الغلْباءُ عُنْصَرُها فإنَّ في الخمر معْنى ليس في العنب
قال أبو الطيب :

ربّما ستشيران إلى ما عدّه اللغويون عليّ مندرجاً في مخالفة القياس . وهو
من هنا يدخل في باب الخطأ كفك الإدغام في «حالل» الذي أشرتما إليه .

قال أبو الندى :

سنعرض لهذا، وربما وجدنا سبيلاً للذهاب إلى غير ما ذهب إليه أهل
اللغة والنحاة .

وسأستقري القصائد وأقف على هذه الفوائد والنكات وسنشارك في
المناقشة .

أقول : لقد جاء في مدحه لمحمد بن عبيد الله العلويّ المشطّب قوله :

يا حاديّ عيسِها وأحسبني أوجدُ مَيْتاً قُبيلَ أفقْدها
وقوله في القصيدة نفسها :

أقرّ جِلْدِي بها عليّ فلا أقدرُ حتّى المماتِ أجحْدُها
وقوله من قصيدة مدح بها المغيث بن عليّ بن بشر العجلي :

وكلمًا لقيّ الدينارُ صاحبَه في ملكه افتَرَقا من قبلِ يصطحبا
قلت :

كانك أردت أن تقول : إن أبا الطيّب حذف «أن» الناصبة قبل الكلمتين
الأخيرتين في البيتين الأول والثاني ليقيم الوزن ورفع الفعلين ليتفقا مع القافية
وهي الدال المضمومة، ومطلع القصيدة الأولى :

أهلاً بدارِ سبّاك أغيدُها أبعدُ ما بانَ عنكَ خُرْدُها
وأما البيت الثالث، فقد حذف الشاعر «أن» وأبقى الفعل منصوباً،

وكانت علامة النصب حذف النون، فقوله:

«يصطحبا» تقديرها: «أن يصطحبا» والحذف يقيم الوزن، وهو أمر متطلب.

قال أبو الطيب:

ألا يجوز لي ذلك، وفي العربية نظائر ذلك، لقد جاء في مطوِّلة طرفة بن العبد قوله:

ألا أيُّ هذا اللاتمي أحضُرُ الوَعَى وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخلدي
والتقدير: أن أحضُر.

ولي أن أقول في المثل: «تسمعُ بالمُعَيدي خير من أن تراه»: إن الأصل ينبغي أن يكون، أن تسمعَ، ولكن المثل رُوي على الحذف.

قال أبو الندى:

وما ورد في كتب البلاغة في باب فصاحة الكلمة تكرار بعض الأصوات في كلمات البيت فتصبح ثقيلة فتفقد بيانها كقول أبي الطيب:

وَقَلَقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَلَ الْحَشَا قَلَقَلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَقَلُ
قال أبو الطيب:

وأي شيء فيه، وقد أباحه الشعراء الجاهليون، ألم يقل الأعشى:

وَقَدْ عَدَوْتُ إِلَى الْحَانُوتِ يَتَّبِعُنِي شَاوٍ مِثْلُ شَلُولٍ شُلْشُلُ شَوِلٍ
قلتُ:

أما سمعت أن أهل العلم قد قالوا للأعشى في «عكاظ»: لقد شُلْشَلَتْ
اللفظَ وأجذت المعنى.

ولك، أبا الطيب، مثل بيتك هذا في قصيدتك التي مدحت بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي الأنطاكي، وهو قولك:

ولا الضُّعْفَ حَتَّى يَتَّبَعَ الضُّعْفُ الضُّعْفَ وَلَا الضُّعْفُ الضُّعْفَ بَلْ مِثْلُهُ أَلْفُ

قال أبو الندى:
ومن الصنعة التي هي تصنع قولك:
عُصْنٌ عَلَى نَقْوَى فَلَاةِ نَابَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِمًا
قال أبو الطيّب:

أليس لهذا نظائر لا تعدّ ولا تُحصى في شعر العرب؟
قلت:

نعم، في أدب العربية نظائر هذا ولكنها معدودة مما يدخل في التصنع،
وليس التصنع طبعاً في الشاعر.

قال أبو الندى:

وجاء في مطلع قصيدتك في مدح محمد بن زُرَيْق الطرسوسي قولك:
هَـذِي بَرَزَتْ لَنَا فَهَجَتْ رَسِيْسَا ثَمِ انْثَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيْسَا
ونداء «هذي» اسم إشارة «مما لم يحظ بقبول أهل العلم بالشعر ومثل هذا
قولك:

«أفي كل يومٍ تحت ضِئْبِي شُوَيْعِرُ»
فطلب التحقير يوجب التصغير.
قلت:

وقد تضطرك القافية إلى مخالفة القياس فتذهب إلى ما يشبه كلام العامة،
ألم تقل في مدح محمد بن زريق الطرسوسي:
إِنْ حَلَّ فَارَقَتْ الْخَزَائِنَ مَالَهُ أَوْ سَارَ فَارَقَتْ الْجَسُومَ الرُّوسَا
والصواب: الرؤوسا، ولكنها القافية ذات سلطان.

قال أبو الندى:

وقلت في مدح علي بن ابراهيم التنوخي:

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمَتَدِيرِهَا فَلَا تُدْرِي وَلَا تُذْهِبُ دُمُوعَا
وَالْمَتَدِيرُ الَّذِي يَتَخَذُ الْمَكَانَ دَارًا.

لَقَدْ ابْتَنَسَ النِّقَادُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَجِيءَ هَذِهِ الصِّيَاغَةِ لِلْكَلِمَةِ جَمْعًا مُضَافًا،
وَعُدُّوْهَا مِمَّا يَقْدَحُ فِي جَمَالِ الصَّنْعَةِ.

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

كَأَنَّكُمْ أَهْلَ اللُّغَةِ وَالنَّقْدِ أَصْحَابُ عِطُورٍ وَبِقَوْلٍ تَزْنُونَ بِالْمِيزَانِ، وَلَوْ
عَانَيْتُمْ صَنْعَةَ الشَّعْرِ لَمَا ذَهَبْتُمْ إِلَى هَذَا.

قَالَ أَبُو النَّدَى:

إِنَّكَ جَرِيءٌ تَسْتَمِدُّ جَرَأتَكَ مِنْ فَتْكَ الْأَصِيلِ وَعِلْمُكَ بِالصَّنْعَةِ وَحَذَقُكَ
لِلْعَرَبِيَّةِ فَتَجِيزُ لِنَفْسِكَ اسْتِعْمَالَ الْمَصْطَلَحِ النُّحْوِيِّ اللَّغْوِيِّ وَتُشِيرُ فِيهِ إِلَى نَكْتَةٍ فِي
الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُكَ فِي قَصِيدَةٍ مَدَحْتَ بِهَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
مُحَمَّدٍ الْخَطِيبِ:

حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خِلَقٌ تَخْطِي إِذَا جِئْتُ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنْ
وَمَوْضِعِ النُّكْتَةِ أَنْ الِاسْتِفْهَامَ بِـ «مَنْ» لِلْعَاقِلِ، وَلَمَّا أَرَادَ تَحْقِيرَ تِلْكَ
«الْخِلَقِ» أَوْمَأَ أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَنْهُمْ بِـ «مَا» وَهِيَ لَغْوِيَّةٌ الْعَاقِلِ،
فَاسْتِعْمَلَ «مَنْ» مَعَهُمْ مِنَ الْخَطَا.

أَشْهَدُ إِنَّكَ لِبَارِعٌ تَعْرِفُ لَوَازِمَ صَنْعَتِكَ.

قُلْتُ:

وَمِنْ جَرَأتِكَ اسْتِعْمَالَ صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَسْتَهْلِكُ جَمِيعَ الْبَيْتِ، وَهُوَ فِي
الْقَصِيدَةِ السَّابِقَةِ فِي مَدْحِ الْخَطِيبِيِّ فِي قَوْلِكَ:

الْعَارِضُ الْهَتَيْنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَيْنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَيْنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَيْنِ
وَهَذَا يَكَادُ يَكُونُ كَقَوْلِكَ فِي قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ
أَبِي الْأَصْبَعِ الْكَاتِبِ:

الحازمَ اليَقِظَ الأغرَّ العالمَ الفَظِنَ الألدَّ الأريحيَّ الأروعا

ومثل قولك الذي أردت إظهار براعتك وقد سُئلت بيتاً يتضمن ما يمكن من الحروف، وليتك لم تفعل مثل هذه الألاعيب:

عِشْ اِبْقِ اسْمُ سُدْ جُدْ قَدْ مُرِ اِنَّهُ اسْرُ فُهُ تُسَلْ
غِظْ اِزْمِ صِبِ اَحْمِ اغْزُ اسْبِ رُغْ زَغْ دُلْ اِثْنِ نَلْ
أهذه جرأة، أم سخرية بالقارىء، وكيف لا يقول فيك النقاد ما لا يُرضيك؟

ومثله قولك من قصيدة في مدح سيف الدولة:

أَقِلْ أَيْلْ أَقْطِعْ أَحْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعْدُ زِدْ هَشْ بَشْ تَفْضُلْ أُذْنِ سُرَّ صِلْ
قال أبو الندى:

وجئت بنكات من العربية تدل على مبلغ زادك منها في قصيدتك التي مدحت القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي في قولك:

وَلَدَيْهِ مِلْعَقِيَانِ وَالْأَدَبُ أُلْفَا دِ مِلْحِيَاةٍ وَمِلْمَمَاتٍ مَنَاهْلُ
والنكتة حذف نون «مِنْ» الجارة وهو أسلوب ورد في أدب المتقدمين، قال الحسن بن هاني:

ولم أدر مِلاشيء لا أدر قولها وقد قَرَبْتُ نَضْوِي أَمِصْرَ تُرِيدُ
وجاء في قصيدتك هذه في الأنطاكي قولك:

يا أَفْخَرُ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ مُسْتَعْظَمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلُ
والنكتة هي حذف المنادى ومباشرة «يا» للفاعل.

قال أبو الطيب:

وأى شيء في هذا أَلَمْ يَقُلْ غِيلَانِ ذُو الرِّمَةِ:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجُرْعَائِكَ الْقَطْرُ

قلتُ:

وهل من حاجة للغريب النافر في قولك من قصيدة في سيف الدولة:
مُبَارَكِ الاسْمِ أَعْرُ اللَّقْبِ كَرِيمُ الْجِرْشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ
أردتَ بـ «الجِرْشِيِّ» النفس، هلا قلت «النفس» بضرب من الصنعة
للحفاظ على الوزن.

أضرورة تلك أم زهو وجرأة؟ لتقول إنّي أعرف الغريب والنوادر!!
قال أبو الندى:

ومن النكات النحوية ورد في شعرك، أبا الطيب، ما استشهد به النحاة
في مسألة «لات» النافية الملحقة «بليس» وعملها خاص، وهو أن تدخل على
اسمي زمان يجذف أحدهما والغالب الاسم، أما قولك فزدت عليهم وحذفت
الاسم والخبر وأبقيت مضافاً إليه، وهو:

لقد تَصَبَّرَتْ حتى لَاتَ مُضْطَرِّبٍ فالآنَ أَقَحُمُ حتى لَاتَ مُقْتَحَمٍ
قلت:

ولم أجد استعمالاً لـ «أَنَّى» الدالة على المكان كما وردت في شعرك، أبا
الطيب في مطلع قصيدتك في مدح المغيث العجلي:
دمع جَرَى فَقَضَى في الربع ما وَجَبَا لأهْلِهِ وَشَفَى أَنَّى ولا كَرَبَا
قال أبو الطيب:

وهل كان ذلك تجاوزاً أو خطأً؟

قلت:

أَنَّى يكون الخطأ جارياً في صنعتك؟
ولكني لا أقبل منك جملة أبيات ذهبت في الإغراق أو المبالغة أي مذهب،
ومن ذلك قولك في قصيدة مدحت بها بدر بن عمار:

وَأَعْجَبُ مِنْكَ كَيْفَ قَدَرْتَ تَنْشَاً وَقَدْ أُعْطِيتَ فِي الْمَهْدِ الْكَمَالَا
غُفْرَانِكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا تُؤْتِي حِكْمَتَكَ الْأَنْبِيَاءَ فَيَكُونُ مِنْكَ أَنْ يَكَلِّمَ عَيْسَى
النَّاسَ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ صَبِيئاً، فَأَمَّا أَنْ تَجْعَلَ بَدْرَ بَنِ عَمَّارٍ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَمَا أَنْزَلْتَ بِهِ
مِنْ سُلْطَانٍ.

ثم أريد أن أشير إلى تسهيل الهمز في قولك «تَنْشَا» ولك في هذا رخصة،
فقد جاء الكثير من هذا في العربية.

قال أبو الندى:

وَمِنْ جَرَأَتِكَ وَثَقَّتْكَ بِنَفْسِكَ أَنْكَ تَسْتَعْمَلُ أُنْبِيَةً لَمْ نَجِدْهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ،
وَكَأَنَّكَ تَقُولُ، أَنَا مِنْ صَنَاعِ هَذِهِ اللُّغَةِ، وَكَيْفَ يَأْتِي عَلَى أَهْلِ اللِّسَنِ ذَلِكَ،
وَهُمْ لَا يَدْرِكُونَ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي اجْتَمَعَ لَدَيَّ فَقُلْتُ فِي مَدْحِ أَبِي سَهْلٍ سَعِيدِ بْنِ
عَبِيدِ اللَّهِ الْأَنْطَاكِيِّ فِي قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

قَدْ عَلِمَ الْبَيْنُ مَنَا الْبَيْنَ أَجْفَانَا
بِالْوَاخِدَاتِ وَحَادِيهَا وَبِي قَمَرٌ يَظَلُّ مِنْ وَخْدِهَا فِي الْخِدْرِ خَشِيَانَا
فَقَوْلُكَ «خَشِيَان» بِنَاءٌ عَلَى فَعْلَانٍ. لَا يَقْرَبُهُ إِلَّا مَنْ حَكَمَهُ سُلْطَانُ
الْقَافِيَةِ، وَمِثْلُهُ أَيْضاً:

لَا أَشْرَبْتُ إِلَى مَا لَمْ يَفُتْ طَمَعاً وَلَا أَبَيْتَ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرَانَا
و«حَسْرَان» مِثْلُ خَشِيَانٍ.

قال أبو الطيب:

وهذا وغيره مما أسعى إلى توليده وأقذف به في العربية وبحرّها عُبابَ عَيْلَمٍ
يَسْتَوْعِبُ الْفَرَائِدَ وَالْغَرَائِبَ.

قلتُ:

وقد تَبَلَوُ التَّعْقِيدَ فِي الْبِنَاءِ فَتَفْتَحْهُ فَيَكُونُ مِنْ لَوَازِمِكَ، وَبِمَرِّ بِهِ الدَّارِسُونَ
فَلَا يَبْتَثُّونَ وَهَذَا مَا كَانَ مِنْهُ فِي الثَّانِيَةِ فِي مَدْحِ أَبِي أَيُّوبَ أَحْمَدَ بْنِ عِمْرَانَ:

لا نَعْدُلُ المَرَضَ الذي بك شائقُ أنتَ الرجالَ وشائقُ عِلاَّتِها
أي أنك شَوَّقْتَ الرجالَ إليك وشَوَّقْتَ العِلاَّتَ أيضاً، فكيف نصير إلى
هذا من ظاهر البيت؟

قال أبو الندى:

كأننا لم نستوف الجانب اللغوي ولدينا منه أشتات نافعة. ألم تتكلم
شيخي في قول أبي الطيب أيام الدرس:
«لأنتَ أسودُ في عيني من الظلَمِ»

قلت:

بلى، وأذكر أني كنت أرد على القائلين في مسألة صوغ «أفعل» التفضيل
من الألوان، وأن أهل العلم اختلفوا فيها.

قال أبو الطيب:

لقد جَرَّبْتُ في صياغتي على ما أجازهُ الكوفيون، وما سمع مما استشهدوا
به وذلك في قول الراجز:

جاريةٌ في درعها الفُضفاضِ أبيضُ من أختِ بني إِباضِ
قلت:

ما أسعدني بك، أبا الطيب، الليلة، لقد سمعت اسم الكوفيين
وأصحابنا الكوفيين على لسانك، ولم أعرف أنك على صلة بهم، وأن منهم من
تخصه بأية علاقة.

لقد عرفت فيما عرفت أن لك مع ابن خالويه، وهو من أصحابنا
الكوفيين، قضية، وكلاكما خصم لصاحبه، ألم تذكر ما كان لكما في مجلس سيف
الدولة، وأنت قد سعيت إلى الإزراء بخصمك، لقد جهَّلتَه فقلت لتسمع
مدوحك سيف الدولة: إن ابن خالويه لا يعرف أن «السيف» اسم ليس غير،
وما خلا ذلك من أسائه فنעות وصفات وشهرة أنزلت منزلة الأسماء.

وعرفت أن صاحبك الأثير بمودتك أبو الفتح عثمان بن جني، الذي كان له عناية بشعرك، وهو صاحب «النسر» شرحاً لديوانك، وله مصنفات أخرى تتصل بشعرك.

فكيف كنت اليوم كوفياً، وما رأيك إلا بعيداً عن هذه النسبة حتى ذهب قوم إلى أنك من شعراء بلاد الشام...؟

قال أبو الطيب:

على رسلك، كيف تقول هذا، وقد سمعت منك منذ ليال أنك قد أشرت إلى أصولي «الكوفية» في قولي:

أُمْنِيَّ السَّكُونِ وَحَضْرَمُوتاً ووالدي وكندة والسَّبيعا
قلت:

ليس هذا بشيء بالإضافة إلى «شامتك» التي وقفنا عليها في عامة شعرك.
قال أبو الندى:

هوناً، هوناً، لقد ذهبنا في الحاجة ليس لنا فيها أية فائدة، وقد صرفنا عما اعترمت أن أمضي فيه من مكانة شعر أبي محسّد لدى أهل اللسن والبلاغة...

قلت:

وهذه فوائد جمّة فيها الكثير مما سيضطرب له شاعرنا، على أن فيها مما يبتس منه، ولكنّي ذكرت حين كنا نتحدّث عن صوغه «أفعل» من الألوان، وهي مسألة خلافية شائع فيها الكوفيين على ما زعم أهل الدرس لدفع الخطأ عن صاحبهم...

أقول: ذكرت قول أبي الطيب في أحد ممدوحيه:

أطعنك طَوْعَ الدهر يا ابنِ ابنِ يوسفٍ شهدتنا والحاسدو لك بالرغم
فكيف جاز لك، أبا الطيب، أن تقول وفاءً بالوزن: «والحاسدو». وليس من مُوجب؟

أحلتها على قول الشاعر القديم:

«أبني كُليبِ إِنَّ عَمِّي اللذا»

لا، تلك لغة قديمة في حذف نون «اللذان».

قال أبو الطيب:

أليس لك أن تتجاوز هذه «النكات» وأنت تعرف من أنا في فرائدك
اللغوية....

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
قال أبو الندى:

وأنا أرى ما تراه، ولتجاوز هذا، وها أنذا أسمعكما ما ثقفته أيام الطلب
في دروس البلاغة مما جاء في شعر شاعرنا فأقول ولا أشير إلى أبواب البلاغة التي
جاءت فيها أبيات أبي الطيب شواهد:

إن السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهن إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده مثل الجبان بكف كل جبان
وقال:

ولا كُتِبَ إلا المشرفية عنده ولا رُسل إلا الخميس العرمرم
وقال:

إذا الدولة استحكفت به في ملمة كفاها فكان السيف والكف والقلبا
ولله أبوك، أبا الطيب، كم بلغ منك الزهو بشعرك حتى قلت:
إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدينا فلك
قلت:

وحق له أن يزهي مفتخراً فيقول:
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرأها ويختصم
قال أبو الندى:

وخير لنا أن نمضي في هذا الذي بدأنا به فأتلو قوله :

فلو خُلِقَ الناس من دهرهم لكانوا الظلام وكنت النهارا
وقوله في مدح كافور :

وأمضى سلاح قلّد المرء نفسه رجاء أبي المسك الكريم وقضيه
وقوله في سيف الدولة :

يهزّ الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العُقاب
قال أبو الطيب :

ما تقول في حسن التشبيه هذا، أسبقني إلى مثله من تشيد بذكرهم من
أهل الوصف كابن الرومي وأبي تمام؟
قلت :

كنت أريد أن ألتمس أبا الندى وقفة قصيرة لأقول شيئاً في موقفك من
سيف الدولة وموقفك من كافور كيف كان ذلك؟ وكيف انتهيت من كل منها،
وكيف تستشعر رضاك وسخطك. وكنت أود أن تقف معي على بيتك الأول
وأطلب إليك بعض الندم على ما فرطت في حق الناس، حين نسبتهم إلى
الظلام لتستلّ ممدوحك من بينهم لتنسبه إلى النور؟؟
كنت أريد أن أشير إلى هذا، ولكني آثرت العافية لأحتفظ برضاك
ومودتك.

قال أبو الندى :

ألي أن أمضي في تلاوتي فأسمعكما بديع صنعة أو تصنع ما أراكما إلا
تقولان فيه بعض القول، وهو في البيتين :

أغار من الزجاجة وهي تجري على شفة الأمير أبي الحسين
كأنّ بياضها والراح فيها بياض محدّي بسواد عَيْن
قلت :

كَفَيْتَنِي فِيهَا قَلْتُ فِي قَوْلِكَ الْمَوْجِزَ، وَهُوَ مَا أَرَدْتُ.

قال أبو الطَّيِّب:

لَقَدْ ذَكَّرْتُمَنِي مَا قَالَهُ أَبُو الْفَتْحِ ابْنُ جَنِيٍّ وَقَدْ قَرَأَ عَلَيَّ قَوْلِي:
وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدَعَا لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَاطْرَبُ
قال: مَا زِدْتِ عَلَيَّ أَنْ جَعَلْتَ الرَّجُلَ قِرْدًا فَضَحَكَتُ.

قُلْتُ:

وَكَيْفَ تَرِيدُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللِّسَنِ وَالْبَيَانِ أَنْ يُقَرَّوْكَ عَلَى شَيْءٍ لَا يَرْضُونَهُ
مِمَّا يُخْرِجُ عَلَى سَبَاحَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَيْفَ لَهُمْ أَنْ يَسْكُتُوا عَلَى التَّعْقِيدِ فِي الْبِنَاءِ تَقْدِيمًا
وَتَأْخِيرًا فِي قَوْلِكَ:

أَنْ يَكُونَ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمُ وَأَبُوكَ وَالْثَقْلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ
وَأَنْتَ تَرِيدُ: كَيْفَ يَكُونُ آدَمُ أَبَا الْبَرِيَّةِ، وَأَبُوكَ مُحَمَّدٌ، وَأَنْتَ الثَّقْلَانِ؟
تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قال أبو النَّدَى:

كَأَنَّا أَطْلَنَّا مَقَامَنَا اللَّيْلَةَ فَهَلْ لَنَا أَنْ نَنْصَرِفَ لِنَأْتِيَ فِي مَجْلَسِ قَادِمٍ؟

المجلس الخامس عشر

قال أبو الندى:

لقد شغلتنا بُنَيَاتُ الطريق عما كنا فيه من تلاوة فرائد أبي محسّد التي
حفلت بها مصادر البلاغة، فهل لنا أن نغضي في سبيلنا؟

قلت:

وهل لنا شيء غير هذا، فعلى رسلك أبا الندى وهَيَّءْ لنا من أمرنا رشداً.

قال أبو الندى:

مما استظهرناه أيام الطلب قول أبي محسّد:

مَنْ يَهْنُ يَسْهُلَ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا الْجُرْحُ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ
ولكني لأضيق ذرعاً بإدراج أهل البيان لهذا البيت في باب «التشبيه
الضميني». وكأني بهذا المصطلح قد جرّد البيت مما فيه من خفة ورشاقة وجمال.
قلت:

أحسنْتَ أبا الندى، لقد شُغِلت مثلك بهذا الذي دُعي «التشبيه
الضميني»، وقد كنت حفيّاً بقول أبي تمام:

لَا تُنْكَرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالَسِيلَ حَرْبٍ لِلْمَكَانِ الْعَالِي
قال أبو الطيب:

كأنك تردّ على أبي الندى ما ذَهَبَ إليه من إحساني فيما أنشد، وكأنك
تقول أن بيت أبي تمام قد ظهر على بيتي المتقدّم.

وأين أبو تمام من هذا اللون الذي أدرجتموه في باب ما سُمِّي بـ «التشبيه الضمني»؟

قال أبو الندى: ...
ما أظن أن شيخي قد ذهب إلى ما تقول، وقد ذهبت بعيداً في ظنك،
وكأنك تردّ على بعض القائلين بسبق أبي تمام في هذه الفنون. ...
لك أن تزهي، أبا الطيّب، بفرائدك التي أصبحت دلائل ناطقة يروها
صاحبك وخصمك، ومنها: ...
وأصبح شعري منهما في مكانه وفي عُتق الحساء يُستحسن العقد
وقولك في تائية عامرة: ...

كَرَمَ تَبَيَّنَ فِي صِفَاتِكَ مَائِلاً وَبَيَّنَ عُتْقُ الْخَيْلِ مِنْ أَصَوَاتِهَا
قلت: ...

ولاني لأود أن أؤكد أني شديد الاحتفاء بهذه الفرائد، وكيف أنسى قول أبي
الطيّب في هذا الذي يشغلنا الليلة ومنه: ...

لَا يُعْجِبُنْ مَضِيماً حُسْنُ بَزْتِهِ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جُودَةَ الْكَفَنِ
وأين نحن من قوله: ...

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
وقوله: ...

فَلِإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَلِإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ
واحتفائي بهذه اللآلئ لا يمنعني من أن أشير إلى ما قصّرت فيه، أبا
الطيّب، فكيف سخرت من قُرّائك فقلت: ...

وَقَلَقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَلَ الْحَشَا قَلَاقِلُ هَمِّ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ
قال أبو الطيّب: ...

لم يزل في نفسك شيء من هذه التي عبتني بها، وكأنّ إحساني الجمل لم

يبعدك عما أنت فيه مما جعلته من عيوي.

قال أبو الندى:

وهل خلا أحد من العيب، وجَلَّ مَنْ لا عيب فيه، فلا تبتس، أبا
الطيب، وأنت الشاعر الشاعر ألا أكون معك في قولك الذي غلبت صنعة ما
أراها صنعتك الحاذقة التي عُرِفَتْ بها، وهو:

نَشَرْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرَهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرْتُ لِيَايَ أَرْبَعًا
وَاسْتَقْبَلْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرْتَنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا
قَلْتُ:

ما تركت لي، أبا الندى، وجهاً للقول، فقد أوصدت كل باب وقد
أحسن الجواب.

وكيف لي أن أجعل الاستعارة البارة في قول أبي الطيب:

فلم أر قبلي مَنْ مَشَى الْبَحْرَ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تَعَانُفُهُ الْأُسْدُ
مثل استعارته التي خانها التوفيق في قوله:

وَلَمَّا قُلْتُ الْإِبِلُ امْتَطَيْنَا إِلَى ابْنِ أَبِي سَلِيمَانَ الْقُلُوبَا
وقوله الذي أثقلته صنعة متكلفة في وصف القلم:

يَمُجُّ ظِلَاماً فِي نَهَارٍ لِسَائِهِ وَيَفْهَمُ عَمَّنْ قَالَ مَا لَيْسَ يَسْمَعُ
وأين هذا من قوله في وصف الأسد:

وَرَدَّ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِباً وَرَدَ الْفِرَاتَ زَثِيرُهُ وَالنَّيْلَا

قال أبو الندى:

إن هذه الأشبات التي نسبتها إلى التصنع والتي ابتعدت عن صفاء
الشاعرية لدى أبي محسد قليلة بالإضافة إلى الجمل الغفير من كلمه النوايغ، فإذا
قال:

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيقَةً سَقَاها الْحِجَى سَقَى الرِّياضِ السَّحَابِ

فهل يكون في ذلك إبعاد لحسناته وهي كثيرة؟

قال أبو الطيب:

أين أنتما عن قولي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا
وقولي:

غَاضَ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ وَأَعَوَزَ الصَّدْقُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْقَسَمِ
وقولي:

الْيَكُ فَلَيْتِي لَسْتُ بِمَنْ إِذَا اتَّقَى عِضَاضَ الْأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعِقَارِبِ
وقولي:

فَلِإِنْ تَزْعُمُ الْأَمْلاكَ أَنَّكَ مِنْهُمْ فَخَاراً فَإِنَّ الشَّمْسَ بَعْضَ الْكَوَاكِبِ
وقولي:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ
وقولي:

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرَبُّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ
وقولي:

وَمَنْ يَجْعَلُ الضَّرْغَامَ لِلصَّيْدِ بَازَهُ تَصَيَّدَهُ الضَّرْغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَا
وقولي:

وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ
وقولي:

مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا كَالَّذِي عِنْدَهُ تَدَارُ الشَّمُولُ

وقولي:

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتى فؤادي في غِشاءٍ من زبالٍ
فصِرتُ إذا أصابتني سهامُ تكسّرت النصال على النصالِ

وقولي:

والهمُّ يَحْتَرُمُ الجسيمَ نحافةً ويشيب ناصيةَ الصبيِّ ويُهْرِمُ

وقولي:

رَمَى وَاتَّقَى رَمِي وَمِنْ دُونَ مَا اتَّقَى هَوَى كَاسِرٌ كَفَى وَقُوسِي وَمِعْصَمِي
إِذَا سَاءَ فَعَلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَاذُهُ مِنْ تَوَهُمِ

وقولي:

لَا تَلْقُ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مَكْتَرٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَدَنُ
قُلْتُ:

بَخِ بَخِ، أَرَاكَ أَجَدْتَ فَاسْتَمْتَعْتَ فَاطْلُتْ، وَلَسْتُ بِقَاطِعٍ عَلَيْكَ هَذِهِ
الْمَتْعَةَ، وَمَا أَرَانِي إِلَّا صَاحِبَكَ وَصَفِيكَ، وَأَذْكَرُ أَنِي أَمَلَيْتُ عَلَى أَبِي النَّدَى أَيَّامَ
الطَّلَبِ جَمَلَةً مِنْ هَذِهِ الْفَرَائِدِ الْحَسَنَةِ مَا يُوَلِّفُ مُصْتَفًى.

قال أبو الندى:

نعم، إِنِّي لِأَذْكَرَ ذَلِكَ، وَمَا زِلْتُ أَجِدُنِي أُرَدَّدُ وَأَنَا لَا أَقْصِدُ قَوْلَكَ أَبِي
مَحْسَدَ:

أَقَمْتُ بِأَرْضٍ مُضَرَّ فَلَا وَرَائِي تَحُبُّ بِيَ الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَّنِي الْفَرَاشَ وَكَانَ جَنْبِي يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ

وقولك:

إِنِّي أَصَاحِبُ حِلْمِي وَهُوَ بِي كَرَمٌ وَلَا أَصَاحِبُ حِلْمِي وَهُوَ بِي جُبُنٌ
وَلَا أَقِيمُ عَلَى مَالٍ أَذِلُّ بِهِ وَلَا أَلْدُّ بِمَا عِزُّنِي بِهِ دَرِنٌ

قلت:

ومما استظهرته في صباي، وأنا أستقبل الفتوة والشباب قول أبي الطيب:
على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وحق لك، أبا الطيب، أن تمدح نفسك مزهواً فتقول:

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والمهرم
لأنك جئت بما لم يستطع غيرك ممن تقدموك أن يأتي به كثرة وإجادة وصف
وإرسال فائدة وقول مأثور، ورشيق كلم أصبح على كل لسان كأنه الحكمة التي
لا تتأق إلا لذوي العقول والألباب.

قال أبو الندى:

ومن هذا الذي بسطت القول فيه قوله:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل
وقوله:

ومكايذ السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بشن المفتى
وقوله:

لا تحسب المجد ثمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا
وقوله:

فلا تنلک الليالي إن أيديها إذا ضربن كسرن التبع بالعرب
وقوله:

ولست أبالي بعد إدراكي العلا أكان ثرائاً ما تناولت أم كسباً
وقوله:

وهل تغني الرسائل في عدو إذا ما لم يكن ظباً رقا

قلت :

إن هذا الذي سمعناه من أبي الطيّب ومنك وغيره أكثر من ذلك، مع براعة في الاستهلال في كثير من مطالع قصائده، وقد أشرنا إلى ذلك في أثناء مجالسنا، شعر شاعر اكتملت أدواته وأوتي من خفة الطبع ولطف الصنعة ما لم يؤت غيره من الأفاضل.

أقول: إذا كان له كل ذلك فكيف قال في مطلع قصيدة له معروفة ذكرها النقاد على أنها مطلع غير موفق، وهو:

أوه بديلٌ من قولتي وها
قال أبو الندى:

لديّ من هذه الفرائد الكثير الكثير مما لا أقوى على تلاوته، ونحن نذهب بمئة ويسرة ونجور عن السبيل، فهل لي أن أعود إلى تلاوتي فأسمعكما مما أحفظه؟ ومنه:

لا يُدركُ المجدَ إلا سيّدُ فِطْنٍ لما يَشُقُّ على الساداتِ فَعَالُ
لا وارثُ جهلٍ يُمنّاهُ ما وَهَبَتْ ولا كَسوبٌ بغيرِ السيفِ سَقَالُ
وقوله:

وللسرّ منّي مَوْضِعٌ لا يَنالُهُ نَدِيمٌ ولا يُفْضي إليه شَرابُ
وقوله:

أقَى الزمانَ بَنوهُ في شَبِيبَتِهِ فَسَرُّهُمْ وأَتِيناهُ على الهَرَمِ

ولا أريد أن أحبسكما طويلاً فقد امتد بنا المجلس وتشعبت بنا المسالك وأتينا على الفرائد الحسان.

قال أبو الطيب:

وما أراني قد ابتأست بمجلسنا هذا، وأشعر أنني أفدت من علمكما.

قلت:

ولي أن أختتم هذه السلسلة بقولك أبي الطيب:
وما الدهرُ إلّا من رُواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
وكأنك أدركت هذا فرأيت بعينك كيف كان لديوانك أن يكون مظنة
درس، وقد أقبل عليه أهل العلم وطلاب الدرس في كل مكان من دنيانا.
فقرّ عيناً بما أدركته وكسبته، ولا تبتش في قولك:
وأيّ شئتِ يا طُرقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكاً

المجلس الثامن

غفر الله له ولوالديه

المحتوى

٥	مقدمة
٧	المجلس الأول
١٩	المجلس الثاني
٣١	المجلس الثالث
٤١	المجلس الرابع
٥٧	المجلس الخامس
٧١	المجلس السادس
٨٨	المجلس السابع
٩٦	المجلس الثامن
١١٤	المجلس التاسع
١٢٥	المجلس العاشر
١٣١	المجلس الحادي عشر
١٣٤	المجلس الثاني عشر
١٤٢	المجلس الثالث عشر
١٤٧	المجلس الرابع عشر
١٦٠	المجلس الخامس عشر